

كيف نقرأ الجبرتي؟

أو

الجبرتي بين سلطان الفقه وسلطان التاريخ

بقلم : أحمد جدي

التأليف عن صورة الجبرتي ومدونته ، مثل تاريخ الثقافة العربية الإسلامية في العصر الحديث (ق 18 / ق 19) وتاريخ الفكر العربي الإسلامي الحديث

وتاريخ النخب وعلاقاتها بالكتابة والتاريخ والسلطة وإلى أي حد استطاعت المدونات العربية الإسلامية في العصر الحديث (الجبرتي ، الطهطاوي ، خير الدين ، ابن أبي الضياف ، قبادو ، بيرم الخامس ، الكواكبي ، إلخ ...) أن تكون وفيّة للتاريخ ولواقع مجتمعهما باعتبار العلاقات الوثيقة بين المدونات والتاريخ واللغة والكتابة والمعنى والمؤلف ، أي علاقات الذاتي بالموضوعي .

ومن زاوية أخرى تشغل مثل هذه المسائل النخب العربية الإسلامية بطرائق مختلفة (3) بما أنها لاتخرج إطلاقا عن مجال إشكاليات القراءة والتأويل والمحطاب (4) في علاقات معينة بالتاريخ وبوعي للمسائل

لا نطمح بهذا العمل الإلتخراط في مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة (1) بل نرغب في توضيح جوانب من الفكر العربي الإسلامي الحديث (ق 16 - ق 19) انطلاقا من عينة متميزة على أكثر من مستوى باعتبار مكانتها ضمن النخب العربية الإسلامية ، وهي عهد الرحمان الجبرتي من حيث شخصيته وأثواره وتفكيره وعلاقاته بالفقه والتاريخ والمجتمع والغرب وآليات التفكيك ومناهج الكتابة ، اعتمادا على مدونته .. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار .. (2) والفرض من ذلك ، محاولة الإجابة على سؤال مركزي بفرعيه :

- 1 - كيف تحول الجبرتي من الفقه إلى الكتابة في التاريخ ؟
- 2 - كيف نقرأ الجبرتي ؟

ويتنزل هذا البحث في أطر عديدة ومختلفة ومتكاملة لنضفي بها نوعا من

المشرق والمغرب (11) شغلته ثنائيات التقدم والتأخر أو الغرب والشرق أو نحن والآخر أو الإسلام وأوروبا .

فكيف انتقل هذا الأزهري إلى الكتابة في التاريخ وعن التاريخ تاركا لنا مدونة ثمينة اختار لها عنوان « تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ؟ .

يفيدنا الجبرتي في مدونته بأنه لم يكتبها من أجل « خدمة ذي جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ولم أداهن فيه دولة ينفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفساني أو غرض جسماني » (12) وهذا يعني أن كتابه ليس

توصية أو طلبية من أحد الأجهزة الرسمية المؤثرة في النخب ، ونعتقد أن هذا شرط من الشروط الموضوعية في كتابة التاريخ قد توفّر في فكر ومنهج الجبرتي ، ويعترف لنا صاحب « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » بأنه ليس مؤرخا بقوله : « وأنا أستغفر الله من وصفي طريقا لم أسلكه وتجارتي برأس مال لم أملكه » (13) ، وبذلك نتأكد من أن الجبرتي قادته ظروف ومعطيات إلى الكتابة في التاريخ وعن التاريخ دون أن يعرف نفسه أو يعتبرها مؤرخا ، وهذا يعني من جانب آخر أنه خرج من سجلّ الفقه إلى سجلّ التاريخ كما يراه هو تحت تأثيرات وضغوطات يجب معرفتها والعلاقة بين

المطروحة باعتبار التاريخ ليس وجودا مستقلا في الماضي عن وعينا الحالي وآفاق مجربتنا الحياتية الراهنة ، ذلك أن المحاضر الراهن ليس معزولا عن فعل التقاليد التي انتقلت إلينا عبر التراث والتاريخ بوسائط عديدة ، وهكذا يتحوّل وجودنا الانساني إلى تاريخ معاصر ولا يستطيع الإنسان ، فردا أو جماعة ، تجاوز أفقه الراهن في فهم الظاهرة التاريخية . من هنا ، تبدو لنا راهنية البحث في فكر الجبرتي وفي أهمية مدونته باعتبارهما جزءا من تراثنا وتاريخنا .

الجبرتي بين الفقه والتاريخ :

إنّ التكوين الأزهري لعبد الرحمان الجبرتي لم يعزله عن الحياة وعن وعي معين بالتاريخ والدين والغرب ولم يمتعه من الكتابة في مسائل عديدة دون أن نصفه مبدئيا بالفقيه أو المؤرخ . وسواء انتمى الجبرتي إلى عصر ما قبل النهضة أو عصر النهضة ، فإنه منخرط بواقعه كفرد وكنخبة في جدلية علاقات الشرق بأوروبا ، تلك العلاقات التي أفرزت السؤال الإشكالي : لماذا تقدّم الغرب وتأخرنا نحن ؟ وهو السؤال الذي وجّه الفكر العربي الإسلامي الحديث والمعاصر بتعابير الطهطاوي (5) والكواكبي (6) وعبد (7) والأفغاني (8) وخير الدين (9) وابن أبي الضياف (10) وغيرهم كثير في

ففي عصره أي آخر القرن الثاني عشر (الثامن عشر) وما يليه من أوائل الثالث عشر (التاسع عشر) وهذا يعني أن مدونة الجبري وتحولات فكره العميقة سجيئة أزمة التاريخ المصري من جانب ، وتاريخ الأزمة المعينة ، من ناحية أخرى ، باعتبار الكتابة عن ذلك شكل من أشكال التعبير والوعي والإحساس حتى إن افترضنا أن الجبري لم يعبر عن كل ذلك تعبيرا كاملا شاملا وأنه لم يستوعب ظرفيته وتاريخ بلاده في علاقاتها بالغرب الذي ظهر - بمصر - بجهازه العسكري العلمي التقني الثقافي الحضاري اذ يعبر الجبري عن كل ذلك بلغة عربية مكثفة مخترقة في علاقاتها يحدث غريب عجيب » وهي أول سني الملاحم العظيمة (أي سنة 1213 (1799)) والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأحوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (17) .

إن مصطلح الأزمة - الذي لم يستعمله الجبري في مدونته - يندرج ضمنه كل ما ذكر للتعبير عن تاريخ 1711 باعتبارها تمثل حملة

الجبري ونشأة نصّه ، من ناحية ، وبينهما والتاريخ المصري في نهاية القرن 18 وبدايات القرن 19 ، ثابتة ووثيقة ، من ناحية ثانية ، لفهم تحول الجبري من الأزهرى الفقيه إلى الأزهرى الأراخ والمؤرخ وهو ما دفعنا إلى القول بأنه كتب تحت تأثير وفعل أزمة عامة تمثلت في حملة نابليون بوناپرت على مصر ، ويعبر عن ذلك بدقة كبيرة وبأسلوبه الخاص فيكتب : « إنني كنت سوّدت أوراقا في حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه أوائل الثالث عشر الذي نحن فيه جمعت فيها بعض الوقائع إجمالية وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها محن أدرناها وأمور شاهدها » (14) ، فالجبري إذا ، معاصر لهذه الحوادث والوقائع والمحن التي فرضت نفسها عليه فوثقها قائلا « أحببت جمع شملها وتقييد شواردها في أوراق متسقة النظام » (15) مؤكدا على طبيعة ما عاش معتبرا إياه من سجل الغريب والعجيب » فانها حوادث غريبة في بابها متنوعة في عجائبها وسميته ... » (16) .

ومن البين أن الكتابة في التاريخ وعن التاريخ ، عند الجبري ، مشروطة بأزمة عبر عنها بلغته وبأسلوبه وشقافته دون القطع مع تكوينه فتكلم عن الحوادث والوقائع والمحن والتقييد وغريبة ومتنوعة ، منزلا كل ذلك

الفرنسيين وحاول إدراكها أم قنع في نهاية الأمر بأداء دهشته وعجزه ؟
 ويعترف الجبرتي بأن الحملة حيّرت فكره على جميع المستويات وأدخلت إرتباكاً كبيراً على مرجعيته الذهنية وتصوّره للكون والتاريخ نكتب عن علاقاته بالفرنسيين في مصر « ولقد ذهبت إليهم مرارا وأطلعوني على ذلك ، فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي (صلعم) ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهوقائم على قدميه ناظراً إلى السماء كالمرهب للخليفة وبيده اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف وفي صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين وفي الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه » (19) وبين موقفهم من الصورة والكتاب والقراءة وما تأثير ذلك على الأزهرى الفقيه : « جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية اختتاة عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجعة

نابليون على مصر وما أحدثته من تحولات وردود أفعال مباشرة وغير مباشرة ، على النخب والحكام والعامة والأرض والاقتصاد ، والجبرتي ، القاهري الأزهرى ، كان ضمن هذا النسيج الاجتماعي الثقافي معاصر المثل هذه « الملاحم » و « الشرور » و « المحن » واختلال الزمن « الخ ... فكأنه لم يستوعب ماحدث باعتباره ليس عادياً أو معتاداً بل هو جديد غريب عجيب في نظر فكر الجبرتي أي النخبة ، فتمتفعّل الصدمة والاصطدام بالغرب ، حصل التحول العميق في الفكر الجبرتي الذي خرج بصعوبة من سجل الخطاب الأزهرى الفقهي إلى سجل التاريخ كحدث وظاهرة وافتد ، باعتباره مصدر ذلك هو الغرب بأشكاله وتعبيراته المختلفة ، لذلك يتوجب علينا القول أنّ الجبري جاء للتاريخ كتابة ووعياً وعبراً تحت فعل الغرب بمصر ، أي بواسطة حملة نابليون بونابرت على مصر ، فحصلت علاقة غير متكافئة بين الظاهرة الجديدة ، أي الحملة ونتائجها ، ووعي الجبرتي بها وكيفية التعبير عنها ويقول ذلك صراحة عن العلوم والعلماء الفرنسيين أثناء الحملة « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لايسعها عقول أمثالنا » (18) هل حاول الجبرتي أن يتفهّم ماشهد من تجارب العلماء

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » (21) كان ذلك سنة 1801 والجبرتي لم يغادر مصر والقاهرة ويتابع أعمال الحملة وردود أفعال المجتمع المصري ويؤرخ لها بطريقته .

لهذه الإعتبارات المرتبطة بأزمة مصر نهاية القرن 18 ، كتب الجبرتي في التاريخ وعنه دون أن يكون مؤرخا محترفا لكنه واع إلى حد كبير بالتاريخ وعلم التاريخ وفن التاريخ ويقول في ذلك : « اعلم أن التاريخ علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والساطين وغيرهم (22)

وبهذا التعريف يحدد الجبرتي التاريخ ويبرز أهميته « وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تغلبات الزمن ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين ويستجلب خيار أفعالهم ويجتنب سوء أقوالهم ويزهد في الفاني ويجتهد في طلب الباقي » (23) .

وإن نلّس تأثره بآبن خلدون ، فإنّه يواصل تعميق فهمه للتاريخ معرّقا له « ولما كان علم التاريخ علما شريفا فيه العظة والاعتبار وقيس العاقل نفسه على من مضى من

مايشاء منها فيحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمتنعونه الدخول إلى أعزّ أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أهمهم ممّا يحير الأفكار » (20) .

ويربط الجبرتي بين الحملة وتأثيراتها الاجتماعية والمادية والفكرية المباشرة في مصر وخاصة القاهرة ، فيبين « وخرجت الناس من المدينة وجلوا عنها وهربوا إلى القرى والأرياف ، ثم ان أكثر الفارين رجع إلى مصر لضيق القرى وعدم ما يتعيشون به فيها وانزعاج الريف بقطاع الطريق . واستمرت الطرق محفرة والأسواق معفرة والخوانيت مقفولة والعقول مخبولة والنفوس مطبوقة والغرامات نازلة والأرزاق عاطلة والمصائب عظيمة والمصنّب عميمة والعكوسات مقصودة والشفاعات مردودة وباجملة فالأمر عظيم والحطب جسيم ولا حول

المعتمدة ، وقراءتنا للجبرتي مرتبطة أصلا بمنهج الجبرتي في كتابة التاريخ وتدوينه ولذلك نروم إبراز هذا الجانب الأساسي من البحث لنستنتج ما يمكن استنتاجه لتنظيف إلى منهج الجبرتي أم نكتف به لأهميته وراهنيته

إن مدونة الجبرتي مشحونة بالمصطلح والأحداث التاريخية وأسماء الأعلام والتواريخ وردود الأفعال والمواقف والحركة بأشكال مختلفة تلخص في المسائل التالية :

- (1) الجبرتي والتاريخ
- (2) الجبرتي والغرب وتحديد الحملة الفرنسية على مصر
- (3) الجبرتي والمجتمع المصري
- (4) الجبرتي والنخبة

وفي تعامله مع هذه الأبعاد الأساسية لمدونته ، من السهل على الباحث معرفة منهج الجبرتي وتقسيمه وأسلوبه ، إذ اعتمد في عملية التدوين على تقنيات عديدة ومتكاملة ومختلفة معمول بها اليوم في البحث الاجتماعي والتاريخي عموما مثل قوله : « إنني كنت سودت أوراقا » (27) ويعني الكتابة ، و « جمعت فيها بعض الوقائع إجمالية » (28) أي الحدث التاريخي و « نحن أدر كناها » (29) ، أي المعاصرة و « أمور شاهدناها » (30) أي

أمثاله في هذه الذكر » (24) مضيفا : « وفن التاريخ علم يندرج فيه علوم كثيرة لولاه ما ثبتت أصولها ولا تشعبت فروعها » (25) ، إذا لم يكتب الجبرتي في التاريخ عن فراغ ودون أسباب عميقة ومنهج واضح المعالم .

كيف نقرأ الجبرتي ؟

القراءة - بماهي فعل ورد فعل - وتفاعل تتحقق في الراهن والحاضر باعتباره وجودا ثقافيا تاريخيا معرفيا وخبرة حياتية مألوفة . وبهذا المعنى ، لانتشأ القراءة من فراغ ولا تتم دون منهج وآليات . وسؤالنا كيف نقرأ الجبرتي يحيلنا على سجلات عديدة ومتكاملة نرغب من خلالها فهم هذه المدونة المتميزة . في هذا الاتجاه من الضروري التنبيه إلى عدم الخلط بين المفاهيم مثل المنهج والمنهجية باعتبار أن المنهج هو تقنية إجرائية تطبيقية على ميدان معين وكثيرا ما يتنوع حسب المجتمعات والحضارات في حين أن المنهجية تعني علم المنهج بماهو كيفية الاستعمال والتطبيق وظروف نشأة المنهج ودلالته ومجالاته وفلسفته عموما (26) ، فتكون النتيجة لكل ذلك تعدد المناهج وتنوع المنهجيات وتباينها في القراءة والتحليل والتفسير والتأويل ، تبعا لاختلاف المنطلقات والأهداف وتنوع الآليات والتقنيات

مصر وموقفه منها وعديد الجوانب الحياتية في القاهرة خاصة ، باعتبارها قتل الثقل الديموغرافي والسياسي والثقافي للمجتمع المصري من ناحية ، ومخبر رصد متميز بالنسبة للجبرتي ، من ناحية أخرى .

فالجبرتي أرخ حملة نابليون على مصر باعتبارها حدثا عظيما عجبا غربيا ومحنة جديدة إذ ذكر بالمكتوب الذي وجهه الفرنسيون للمصريين لإنجاح حملتهم (40) وركز على القرارات المتخذة لأمن القاهرة ونظامها فكتب « وفي يوم الخميس نادوا في الأسواق بأن كل من كان عنده بغلة يذهب بها إلى بيت قائمقام بركة القبيل ويأخذ ثمنها وإذا لم يحضرها بنفسه تؤخذ منه قهرا ويُدفع 300 ريالاً فرنسا ... وفي هذا الشهر نادوا بوقود قناديل سهارى بالطرق والأسواق وأن يكون على كل دار قنديل وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل وأن يلازموا الكنس والرش وتنظيف الطرق من العفوشات والقاذورات وفيه نادوا على الأغراب من المغاربة وغيرهم والخدامين البطالين ليسافروا إلى بلادهم وكل من وجد بعد 3 أيام يستأهل الذي يجري عليه وكرروا المنادة بذلك وأجلوهم بعدها أربعة وعشرين ساعة » (41) ويرصد لنا الجبرتي سياسة بونايرت في مصر والمتشكلة في تحجير الكلام عن

المعاصرة والشهادة والملاحظة ، و « إستطردت في ضمن ذلك » (31) إي الخروج عن الموضوع الأصلي ، « سوابق سمعتها » (32) ، ومن أفواه الشيخ تلقيتها » (المصدر أو أرشيف الصدور) وبعض التراجم (33) و « بعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم » (34) مبينا لنا أنه نظمها حسب السنوات والأعوام « مرتبة على السنين والأعوام » (35) فلم يخرج بذلك عن مدرسة الحوليات ، وكما اعتمد في هذا التدوين على « صكوك دفاتر الكتبة والمباشرين » أي الأرشيف (36) ومانتقش على أحجار تهرب المقبورين » (37) وهي طريقة حديثة في كتابة التاريخ اعتمدها الجبرتي إلى جانب الذاكرة والنسيان والملاحظة إذ يقول : « أمور شهدناها ثم نسيناها وتذكرناها » (38) ومنها أمور تعقلناها وقيدناها وسطرناها » (39) .

إذا ، منهجية الجبرتي في رصده للحركة التاريخية مركزة على الوصف والسرد والملاحظة والمقارنة والشفوي والقراءة المكتوب والتاريخ للحدث والواقعة وهي من هذه الزاوية منهجية متكاملة وعلمية خاصة إذا اعتبرنا صاحبها غير مؤرخ وجعلت منه إلى حد كبير أركا أو اخباريا في مسائل النخب المصرية وحملة نابليون بونايرت على

تتساقط في الطرقات وغيطان المرعى وجافت الأرض منها ، فمئنا ما يدركونه بالذبح ومنها ما يموت ورخص سعر اللحم البقري جداً لكثرت حتى صار يباع بمصر آخر النهار كل رطلين بنصف فضة مع كونه سميناً غير هزيل وعافته الناس وبعضهم كان يخاف منأكله وأما الأرياف فكان يباع فيها بالأحمال وكثر عويل الفلاحين ويكأؤهم على البهائم وعرفوا بموتها قدر نعمتها وغلاء سعر السمن واللبن والأجبان بسبب ذلك لقلتها » (45) نلاحظ إذا أن الجبرتي لم يكتف بوصف هذه الأزمة الاقتصادية في قطاع تربية الماشية ، بل دقق الأمر بذكر عديد النتائج الاجتماعية والمادية والنفسية التي أفرزتها مثل هذه الوضعية ، إن في المدن أو في الأرياف فضلاً عن الأسعار ونوعية اللحم وكمية الاستهلاك وردود أفعال الفلاحين وبقية الفئات الاجتماعية المصرية المستفيدة من ذلك أو المتضررة منه ، وما من شك ، في أن مظاهر عديدة من الأزمة المادية للمجتمع فرضت نفسها على فكر الجبرتي فدونها في حولياته وخاصة مسألة ارتفاع الأسعار ، فيكتب عن ذلك : « وفي جمادى الأولى من سنة 1226 إنقطع الوارد من الديار الحجازية وغلاء سعر التبن حتى وصل إلى مائتين وسبعين نصف فضة كل رطل وقل وجوده من الأسواق والدكاكين فلا يوجد إلا مع

الحملة والجيش : « ونادى أصحاب الدرك على العامة بترك الفضول والكلام في أمور الدولة فإذا مر عليهم جماعة من العسكر مجروحون أو منهزمون لا يسخرون بهم ولا يصفقون عليهم كما هي العادة » (42) ولا يغفل الجبرتي تدخل الفرنسيين في تنظيم الأسعار بالقاهرة : « فجمع الفرنسيون كل من كان له مدخل في تجارة الغلال وزجروهم وخوفهم وقالوا لهم هذه الغلة الموجودة الآن إنما هي زراعة العام الفارط وأما هذا العام فلا تخرج زراعته إلا في العام المستقبل ، فانزجروا وباعوا بالسعر الحاضر وقد كاد يقع الغلاء العظيم لولا لطف الله » (43) إلا أن الجبرتي مأخوذ في تأريخه بوصف الأوضاع الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية المتأزمة في المجتمع المصري مركزاً على ظواهر الموت وغلاء المعيشة والجوع والاحتكار والعنف فيكتب « من الحوادث في هذه الأيام سنة 1201 وقوع الموت الذريع في الأبقار حتى صارت تتساقط في الطرقات ومات لابن بسيوني غازي بناحية سندیون خاصة مائة وستون ثوراً وقس على ذلك » (44) ويدقق الوضعية العامة بوصف كبير « وفي هذا الشهر عمّت البلوى بموت الأبقار والثيران في سائر الإقليم البحري وهل إلى مصر حتى إنها صارت

الاجتماعية التي شغلته والتي اعتبرها موطن الداء : « وفي هذه الأيام حصل وقف حال وضيق في المعاش وانقطاع للطرق وعدم أمن ووقوف العربان ومنع السبل وتعطيل أسباب وعسر في الأسفار بسرًا وبحرا » (49) ويركز على نماذج من ردود أفعال جماعية كنتيجة لعرق التوتر الاجتماعي : « وفي منتصف محرم اجتمع الفقراء والشحاذون رجالا ونساء وصبيانًا وطلعا إلى القلعة ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع فلم يجبه أحد فرجموا بالأحجار » (50) وفي مثل هذه الأوضاع ، لم تكن الأقليات العربية الإسلامية بالقاهرة في مأمن من هذه الأزمة ، ذلك أن الجبرتي يذكر لنا بالتفاصيل رد فعل المغاربة والشوام بالأزهر فكتب : « ثار جماعة من الشوام وبعض المغاربة بالأزهر على الشيخ العروسي بسبب الجراية وقفلوا في وجهه باب الجامع وهو خارج يريد الذهاب بعد كلام وصباح ومنعوه من الخروج فرجع إلى رواق المغاربة وجلس به إلى الغروب ثم تخلص منهم وركب إلى بيته ولم يفتحوا الجامع وأصبحوا فخرجوا إلى السوق وأمروا الناس بغلق الدكاكين » (51) . ويذكر الجبرتي نوعية العلاقات وردود الأفعال بين الفئات المتضررة من الأزمة المادية ، من ناحية ، ورموز السلطة السياسية

المشقة وصنع الناس القهوة من أنواع الحبوب المحمصة كالشعير والقمح والفول وبرز العاقول وغيره مخلوطا من البن وبغير خلط » (46) ولا يفصل الجبرتي غلاء الأسعار عن عمق الأزمة الاجتماعية الاقتصادية في مصر فيصف الكثير من جوانبها رابطا بينها : « الأمر في شدة من الغلاء وتضاع المظالم وخراب البلاد وشتات أهلها وانتشارهم بالمدينة حتى ملؤوا الأسواق والأزقة رجالا ونساء و أطفالا يبكون ويصيحون ليلا ونهارا من الجوع ويموت من الناس في كل يوم جملة كثيرة من الجوع » (47) وبذلك تصبح العلاقة بين الأزمة المادية والأزمة الديمغرافية وثيقة عضوية « وفي شهر رجب 1205 زاد أمر الطاعون وقوى عمله بطول شهر رجب وشعبان وخارج عن حد الكثرة ومات به ما لا يحصى من الأطفال والشبان والجواري والعبيد والمساكين والأجناد والكشاف والأمراء ... ولم يبق للناس شغل إلا الموت وأسبابه فلا تجد إلا مريضا أو ميتا أو عائدا أو معزيا أو مشبعا أو راجعا من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولا في تجهيز ميت أو باكيا على نفسه واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات في جمعة واحدة » (48) . كائننا بالجبرتي مؤرخا للموت والموتى في مصر ، باعتبار طبيعة الأزمة المادية

الاجتماعية وتحالفاتها السياسية الظرفية فيكتب مثلا عن ذلك قائلا : « وفي رمضان 1202 ، وقع بين طائفة المغاربة الحجاج النازلين بشاطئ النيل بسلاط وبين عسكر القليوونجية مقاتلة ، وسبب ذلك أن المغاربة نظروا بالقرب منهم جماعة من القليوونجية المتقدين بقلبون إسماعيل بك ومعهم نساء يتعاطون المنكرات الشرعية ، فكلسهم المغاربة ونهوه عن فعل القبيح وخصوصا في مثل هذا الشهر أو أنهم يتباعدون عنهم ، فضربوا عليهم طبنجات ، فثار عليها المغاربة واشتبكوا معهم ومسكوا من مسكوه وبحوا من ذبحوه ورموه إلى البحر » (53) .

كما يشهد لنا في تاريخه جوانب من العلاقات المتوترة بين الشوام والأتراك في القاهرة ، فيقول : « وقعت حادثة بالجامع الأزهرين طائفة الشوام وطائفة الأتراك بين المغرب والعشاء فهاجم الشوام على الأتراك وضربوه فقتلوا منهم شخصا وجرحوا منهم جماعة ، فلما أصبحوا ذهب الأتراك إلى إبراهيم بك وأخبروه بذلك فطلب الشيخ عبد الرحمان العريشي مفتي الحنفية والمتكلم على طائفة الشوام وسأله عن ذلك فأخبره عن أسماء جماعة وكتبهم في ورقة وعرفه أن القاتلين تغيبوا وهربوا ومتى ظهوروا أحضرهم إليه » (54) وقد تميّزت هذه العلاقات في

من ناحية أخرى فيكتب : « فيه من الحوادث أن بعض العيارين من السراكت تعدوا على قهوة الباشا بشبرا وسرقوا جميع ما بالنصبة من الأواني والبيكارج والفناجين والظروف فأحضر الباشا بعض أرباب الدرك بتلك الناحية وألزمه باحضار السراق والمسروق ولا يقبل له عذرا في التأخير ولويصالح على نفسه بخزينة أو أكثر من المال ولا يكون غير ذلك أبدا وإلا نكل به نكالا عظيما وهو المأخوذ بذلك فترجى في طلب المهلة فأمله أياما وحضر بخمسة أشخاص وأحضروا المسروق بتمامه لم ينقص منه شيء وأمر بالسراق فحوز قوهم في نواحي متفرقين بعد أن قرروهم على أمثالهم وعرفوا عن أماكنهم وجمع منهم زيادة على الخمسين وشنق الجميع في نواح متفرقة بالأقاليم مثل القليوبية والغربية والمنوفية » (52)

ومن المهم جدا التركيز على الحضور المكثف للنخب والأقليات في مدونة الجبرتي التي تفيدنا بمعلومات دقيقة عن الجذور الثقافية الجغرافية لهذه النخب وأوضاعها المادية والاجتماعية والسياسية ومواقفها وردود أفعالها فيما بينها أو اتجاه المجتمع المصري وعلى كثرة هذه الأقليات مثل الأتراك والمغاربة والشوام والنصارى واليهود ، فإن الجبرتي يصنف لنا خصوصياتها الثقافية

أعلى المنارات يصبحون ويضربون بالطبول وانتشروا بالأسواق في حالة منكرة وأغلقتوا المحالّات « (56) ، ويحرص الجبرتي على مدّنا بمعلومات دقيقة حول الأوضاع والعلاقات الداخليّة بين الأزهريين تصل أحيانا صراعات كبيرة : « وفي هذه الأيام كان بين مشايخ العلم منافسات ومنافرات ومحاسدات وذلك في أوائل شهر رمضان وتعصبات بسبب مشيخة الجامع ونظر أوقافه وأوقاف عبد الرحمان كتحدا فاتفق أنّ عبد الرحمان السجيني ابن الشيخ عبد الرؤوف عمل وليمة ودعاهم إليها فاجتمعوا في ذلك اليوم وتصلحوا في الظاهر » (57) .

كما يركّز على محاولات تنظيم رد فعل سياسي ومادي على الحضور الإنجليزي بمصر هذا التنظيم الذي تشرف عليه نخب القاهرة في البيوت الخاصّة : « حصلت جمعية بيت القاضي وحضر حسن باشايك والدفتر دار والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير وباقي المشايخ فتكلموا في شأن حادثة الأتكليل والاستعداد لمحربهم وقتالهم وطردهم فأنهم أعداء الدّين والملة » (58) . ويمثل هذه المواقف ، نتأكد من أنّ النخبة العربيّة الإسلامية في القاهرة ، ومنها الجبرتي ، رأت في الغرب عدواً للدين والملة ، فكان موقفها مركّزا على اعتبارات دينيّة

بعض جوانبها بالعنف المادي والرمزي وتدخّل السلطة السياسيّة أو القضائيّة للحدّ من التوتر داخل هذه الأقليات وفي علاقاتها بالمجتمع المصري ويفيدنا كذلك بردّ الفعل الجماعي : « تشاجر رجل شريف مع تركي في سوق البندقانيين فضرب التركي الشريف فقتله ولم يعلم أين ذهب . فوضع الأشراف المقتول في تابوت وطلّعوا به إلى الديوان وأثبتوا القتل على القاتل ، فلما كان يوم عاشره قامت الأشراف وقفلوا أسواق القاهرة وصاروا يرحمون أصحاب الدكاكين بالحجارة ويأمرونهم بقفل الدكاكين وكل من لقوه من الرعية أو من أميرضريونه » (55) .

ولا يخفي الجبرتي تعاطف بعض رجال الأزهر مع العصاميّة ، في ظروف الأزمة الاجتماعيّة الاقتصاديّة ، وقد يصل هذا التعاطف أحيانا إلى التحالف بين رموز من الأزهر والمتضرّرين من الأزمة ، فيصف لنا هذا المشهد قائلا : « وفي صباحها ثارت جماعة من أهالي الحسينية وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول والتف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامّة والجمعيّة ويأيدهم نهابيت ومساق وذهبوا إلى الشيخ الدردير فوافقهم وساعدهم بالكلام وقال لهم أنا معكم ، فخرجوا من نواحي الجامع وقفلوا أبوابه وطلع منهم طائفة على

وعلاقته بالمؤلف من ناحية ثانية ، وعلاقة المفسر أو المؤول بالمؤونة وهل نستطيع فهم مدونة الجبرتي كما فهمها هو وتصورها . ونعتقد أن المسألة معقدة بطبيعتها لأنها تربط بين المؤلف والنص والقارئ بعلاقات غير متكافئة وبواقع مختلف من حيث نشأة المؤلف ونصه ومختلف أيضا من حيث ظروف القارئ كناقذ أو مفسر أو مسؤول وما يضاف إلى هذا التعقيد تلك المفارقة المتمثلة في زمنية النص والمؤلف باعتبارهما ينتميان إلى زمن آخر مختلف عن زمن التفسير وواقع المفسر أي أن المؤلف والقارئ ينتميان إلى عصرين مختلفين وواقعين متميزين ومهما يكن من أمر ، فإن قراءتنا للجبرتي ليست سوى قراءة على قراءة باعتبار المدونة نفسها فعل قراءة قام بها الجبرتي وبقي لنا أثرها ومصدرا ومنهجها وسؤالا ونمط تفكير . ومن هذا المنطلق ، مدتنا المدونة الجبرتية بتقنيات عديدة في تعاملها مع التاريخ كوتت منهج الجبرتي في كتابته للتاريخ .

فالجبرتي اخباري وأراخ بالمعنى الكامل للكلمة ذلك أنه ينتمي لمدرسة الحوليات التي تعتبر من أعرق المدارس التاريخية العربية الاسلامية والعالمية في آن واحد فنجدته يؤرخ باليوم والشهر والسنة مع ما يكتب باللغة والأرقام والأسماء والوقائع مثل : استهلت

ثقافية . . .

نستنتج من كل ما سبق أن الجبرتي انصهر في مدونته . في التاريخ كحدث وحركة وتغيير وعبر وجديد وغريب حتى إن كان الجبرتي ليس مؤرخا محترفا بل جاء للتاريخ بفعل عوامل مؤثرة أهمها على الإطلاق حملة بونايرت على مصر وما أحدثته من تحولات في بنية الذهن وتركيبية المجتمع وردود الأفعال المختلفة ، مباشرة وغير مباشرة ومكنتها هذه القراءة من إبراز ثراء مدونة الجبرتي من النواحي التاريخية والديغرافية والاجتماعية والإقتصادية والثقافية يمكن أن نطبق عليها المناهج العصرية .

نتائج قراءة الجبرتي وأفاقها :
تندرج قراءة تانا لمدونة الجبرتي وفكره ضمن اشكالية قراءة التاريخ العربي الاسلامي ومن ضمنه التراث كلغة وفقه ونحو وأسلوب ونمط تفكير وتاريخ واقتصاد وكل ما يكون الحياة المادية والاجتماعية والسياسية والرمزية للفرد والجماعة . وسواء كانت مدونة الجبرتي نصا أدبيا أو فقهيا أو سياسيا أو دينيا ، فإنها لم تخرج عن دائرة سلطان التاريخ كما عاشه الجبرتي وتصوره وبالتالي تكون قراءتنا للجبرتي مدونة وفكر ضريبا من ضروب التأويل المتعلقة بطبيعة النص وعلاقته بالتاريخ والتراث وتقاليد الكتابة من ناحية

ووفاتها ، وفي الجزء الثاني 131 حالة تشمل الأعيان والجزء الثالث 56 حالة موت فيكون المجموع 669 عنصرا من النخب المصرية وهذا ما يجعلنا نلح أن المنهج الاجتماعي السوسيولوجي واضح المعالم في مدونة الجبرتي باعتباره يساعدنا على دراسة النخب وعلاقاتها وحركيتها وأوضاعها وأدوارها في المجتمع المصري دون أن نتهم الجبرتي بالنخبوية في كتابته للتاريخ

ومن المفيد كذلك أن نلح على أهمية الكمي والرياضي والمصطلحي في دراسة مدونة الجبرتي ذلك أن دراسة المصطلح تحيلنا على أهم السجلات الفكرية والاجتماعية والثقافية التي أثرت في الكاتب وجعلته يعتمد على أسلوب دون آخر للتعبير عن وضعه معينة أو موقف ما . وفي هذا الإنجاء إن مصطلحات مثل : الأعيان ، من له ذكر ، من له شهرة ، العلماء ، الأكابر ، العظماء ، الأمراء ، الأعظم ، المشايخ ، المشاهير ، الأئمة ، تحيلنا بالضرورة على ما يسمى عموما بالخاصة إلا أنها خاصة غير متجانسة باعتبار نوعية وعدد الفئات الاجتماعية التي تكون هذه النخب المحفوظة في المجتمع المصري ، بعلمها أو دورها الاجتماعي أو موقعها السياسي والرمزي ، ويمكن من هذه الناحية تعريف الجبرتي بمؤرخ النخب المصرية إلى حد

سنة ست عشرة ومائتين وألف بيوم الخميس شهر محرم الحرام . وقع ... (59) واستهل شهر ربيع الأول (من نفس السنة) بيوم الأحد ووقع في ذلك اليوم (60) فالجبرتي هنا ، لم يقطع مع التراث العربي الإسلام في التأريخ والتحقيب ويبدو أنه لم يتأثر كثيرا بابن خلدون ونظريته للتأريخ عموما . ومن زاوية أخرى ، تفيدنا المدونة بأن الجبرتي أرخ للموت ولدت النخب خصوصا وهو منهج الديمغرافيا التاريخية المعاصرة فتكلم بتفاصيل كثيرة ومهمة عن الأموات الذين ذكرهم في تاريخه وهم من المحفوظين بحكم مواقعهم وأدوارهم الاجتماعية (61) واتباع الجبرتي نفس الأسلوب في تعامله مع ظاهرة موت النخب إذ يؤرخ للموت كل سنة فيكتب مثلا : « ذكر من مات هذه السنة » أو « من مات في هذه السنة وتراجمهم » (62) . ومن هذه الناحية يمكن القول بأن الجبرتي اهتم بالتراجم والسير الذاتية للنخب والأعيان وهم حسب لغته « العلماء ، الأكابر والعظماء » (63) و « الأمراء والأعيان والمشايخ والأئمة والمشاهير » و « من له ذكر » (64) . فأورد لنا سيرة ذاتية لـ 204 شخصا و 113 أميراً فكان الجزء الأول من تاريخه حافلا بـ 482 شخصية تحدث عنها الجبرتي في حياتها

لكثرتة ، غلاء سعر السمن واللبن والأجبان
 لقلتها ، غلاء سعر البن ، ضيق في المعاش ،
 وفي مواطن كثيرة يقدم لنا بالأرقام والإمثلة
 غلاء أسعار مواد غذائية أساسية . وفي
 اتجاه آخر ، وإعطاء مدونته وفكره شحنة
 تاريخية واقعية ووصف عمق الأزمة التي
 عاصرها ، يستعمل الجبرتي مصطلحات
 عديدة ومختلفة لكنها مرتبطة بوضع المصريين
 ومصر وهو الوضع الذي يلخصه بكشافة
 مفهوم أو مصطلح الأزمة ، فكتب عن المحن
 المتوالية ، والحوادث الغريبة والملاحم العظيمة
 والحوادث الجسيمة النازلة والنوازل الهائلة
 وتضاعف الشرور واختلال الزمن وانتقال
 الموضوع وفساد التدبير وحصول التدمير
 وعموم الخراب والمصائب عميمة والعقول
 مخبولة والخطب جسيم والأمر عظيم ...

وما من شك في علاقة اللغة بالتاريخ من
 ناحية ، وعلاقتها بالمعنى والدلالة من ناحية
 أخرى . فالجبرتي اختار لغته من تراثه ليعبر
 بها عن واقع جديد كان بإمكانه استعمال
 مصطلح أزمة للتدليل على ذلك ، خاصة إذا
 أعطينا دلالة متميزة « لاختلال الزمن »
 باعتباره مؤشرا طارئا على الجبرتي جعله
 بعدك من قياسه للزمن ونظرته له ووعيه به
 ، وبذلك تجاوز صاحب المدونة السرد والوصف
 ليحلل ويفكك ويعتبر دون أن يغفل على مدنا

كبير ونعتبر تاريخه مصدرا أساسيا لإمكانية
 كتابة تاريخ اجتماعي وثقافي لثل هذه
 النخب المختلفة والمتكاملة ، لأن الجبرتي
 يفضل الحديث أحيانا عن هذه الفئات بذكره
 الاسم واللقب والأب والجد والموقع الجغرافي
 والحسب والنسب والموقع الاجتماعي والدور
 الشقافي أو التربوي والذهني والسياسي
 والتطور الذي يحدث في مسيرة المترجم له
 وسنة الوفاة وظروف الموت وأين دفن وغير
 ذلك من المعلومات عن حياة هذه النخب ،
 باعتبارها جزءا لا يتجزأ من المجتمع الذي
 نشأت فيه وتطورت وتميزت عنه وفعلت فيه
 بطريقة أو بأخرى .

كما تساعدنا مدونة الجبرتي على ضبط
 مستويات عديدة للحياة الاقتصادية والمادية
 للمجتمع المصري بمختلف عناصره ، ذلك أن
 اللغة التي يستعملها الجبرتي لوصف هذه
 المعطيات تدرج ضمن المصطلح الاقتصادي
 الدقيق ولها دلالاتها المادية والاجتماعية في
 نفس الوقت لأنها تركز على اختلاف ظروف
 الحياة ، حياة الأفراد والجماعات في آن ،
 وهنا يكون المنهج الاقتصادي مقارنة علمية
 لمدونة الجبرتي الذي يكتف من استعمال مثل
 هذه اللغة في مدونته مثل : مدخل / دخل ،
 تجارة ، زراعة ، الوارد ، السعر الحاضر ،
 الغلاء ، الغلاء ، الغلال ، رخص سعر اللحم

بل يعطي كلّ مكوناً من مكونات التراث والتاريخ مكانته وقيّمته ودوره ويدرجة في شبكة علاقاته الأساسية ولذلك لا يتردد هذا المنهج في تطبيق تقنيات عديدة لفهم مدوّنة معيّنة مثل المصطلح والاحصائيات والاقتصاد السياسي والرياضيات والفلسفة وعلم الاجتماع واللغة والبلاغة والفقه وما إلى ذلك من وسائل قادرة على إثارة عالم النص الذي لا يمكن أن نضع له حداً لأنّه مرتبط في حياته بالقراءة والقراءة فعل مستمر لا يتوقف أبداً وهي حركة لا تهدأ ولا يقر لها قرار تنطلق من الحاضر والراهن ومشاغل العصر نحو الماضي والتراث والتاريخ ثمّ ترتدّ إلى الحاضر لتؤكد على الحياة ، فحياة المدوّنة مرتبطة بحكمة القراءة والوجود والمعرفة . ولهذا الاعتبار ، حفلت مدوّنة الجبرتي بمعطيات عامّة ، وخاصّة ، ثابتة ومتحوكة ، هيكلية وظيفيّة داخلية وخارجية ، يتداخل فيها المقدّس والمدنّس ، العلمي والأسطوري ، العربي الاسلامي بالأروبي ، الماضي بالحاضر يصعب على الجبرتي - وعلى غيره كذلك استيعابها باللغة ، لأنّ اللّغة محدودة أمام الواقع والتاريخ ، وصعب عليه كذلك مسك الحقيقة والواقع بمنهج مسعين لأنّ العلم محدود والتاريخ بمفهوم الزمن ، لا محدود ، ولذلك لانحتمل الجبرتي ومدوّنته ملا يتحملان ، بل

بمادة تاريخيّة ثريّة ومتنوّعة وهي المادة الخام في التاريخ من حدث وواقعة وحركة وسنة وأسماء أعلام وأماكن وتاريخ وما إلى ذلك من مكونات التاريخ ، فالمسألة من هذه الزاوية ، ليست أزمة مصادر أو أزمة مادة ومعلومة أو أزمة منهج الجبرتي ، بل أزمة المنهج أو المناهج المعاصرة في تعاملها مع التراث والتاريخ باعتبارها تسقط عليهما أسئلة ليست منهما وآليات غريبة عنهما ، وهو ما يجعلنا نؤكد على أن النص يفرض على القارئ منهجاً معيّناً ومنهجية خاصّة وليس على الباحث أن يغتصب النصّ بأسقاط الأسئلة والتقنيات التأويلية والمناهج الدراسية فالجبرتي ، كابن خلدون والطبري والمعمودي ، تعاملوا مع تراثهم وتاريخهم بوسائل عصرهم وبرؤيا خاصّة بهم ولغايات دقيقة يصعب علينا الظفر بها باعتبار المسافة الزمنية والثقل التاريخي بيننا كمعاصرين وبينهم كقدامى أو تراثيين ولذلك نعتقد أنّ المنهج الشمولي الانتروبولوجي هو الذي ييسّر لنا قراءة مدوّنة الجبرتي لأنّه أخفّ ضرراً على المدوّنة التي تعاملت معها مناهج آحادية تفقدتها وحدتها في النهاية ، فالمنهج الشمولي الأنثروبولوجي لا يقصي مجالاً عن مجالات التراث والتاريخ لفائدة مجال معين كالماركسيّة والبنوية والأسلوبية والوظيفية

ذلك أن المنهجية مرتبطة نشأة وتطوراً وفعلاً بنظرية كاملة أونسق معرفي شامل أو فلسفة قائمة الذات وهذا ما يجعلنا نقول أن أزمة المنهج إن وجدت فذلك يعني حتماً أزمة المنهجية أي النظر العقلي والعملي للوجود بواسطة آلية أو جملة آليات تسمى المنهج . ولكي نفهم عناصر النص ،علينا أولاً فهم النص كله وفهم كل النص ينبع من فهم عناصر النص وبالتالي تكون عملية القراءة . للتاريخ والتراث والنصوص . في واقعها عملية لا نهائية في شكل خط مستقيم أو دائرة لانهاية لهما ومعنى هذا أن تفسير الوجود إنطلاقاً من نص أو أثر على مستويات عديدة لا بد أن يركز على معرفة كاملة باللغة وبالدلالات والفقه والنحو والصرف والفن والتاريخ ، ما إلى ذلك من شبكة العناصر التي ساهمت بشكل من الأشكال في إنتاج مدونة أو حركة تاريخية أو لوحة فنية أو خطاباً سياسياً أو إتفاقية دولية أو حرباً كونية أو صراعاً اجتماعياً ثقافياً فالقراءة تؤول والتأويل هو في روحه عملية فهم نص أو غيره ، لكنّها عملية معقدة مركبة يبدأ القارئ فيها أو المؤول من أي نقطة أراد ،لكنه مطالب بتعديل فهمه وقراءته حسب حركة دورته في جزئيات النص وتفصيله وأبعاده المختلفة كأنه

ملا يتحملان ، بل نقول عنهما « جاد الفقير بما عنده » وعلينا قراءة ذلك واستقراءه حسب معطيات وآليات وأسئلة وأفاق محدّدة لأن النص مفتوح بطبيعته ،وبهذا الطرح ،علينا التأكيد على أن المنهج هو الذي يعيش الأزمة باستمرار في علاقته بالقراءة والتأويل والتحليل والتفسير بما أن المادة متوقّرة وليست في أزمة . لذا نقول أن قراءتنا لم تستوف كل شروط القراءة الشاملة والشمولية التي تقتضي رؤيا خاصة ونرى أن من أهم أفاق قراءتنا للجبرتي التفكير الجدائي من أجل كتابة شمولية لتاريخ النص العربي الاسلامي في العصر الحديث وذلك يعني دراسة الجبرتي ومعاصريه في مصر وفي المجال العربي الاسلامي ككل لتستمر المقارنة ونتجاوز الدراسات الأحادية لأن كل نص ، على خصوصياته ، خاضع بالضرورة إلى سلطة أو سلطات أفرزته وميزته عن غيره من النصوص أو بتكامل معها وبها دون أن يكون في قطبها معها ، باعتبار أنغير الجبرتي كتب في التاريخ وجاء للتاريخ من سجل فكري ثقافي آخر مما يعني أن تحولات عميقة وقعتفي الواقع وفي الفكر .

الخاتمة:

المنهج تقنية إجرائية تطبيقية لamenى لها خارج المنهجية التي تعمل ضمنها وتفسر بها

في الثقافة العربية بيروت . دار التنوير . ط 1
1985

نصر حامد أبو زيد : اشكاليات القراءة وآليات
التأويل بيروت . الدار البيضاء . المركز الثقافي العربي
1992 .

كمال عبيد اللطيف : التأويل والمفارقة ، نحو
تأصيل فلسفي للنظر السياسي العربي بيروت
الدار البيضاء . المركز الثقافي العربي . 1987 .

5- رافع رفاعة الطهطاوي : تخلص الإبريز في
تلخيص باريز القاهرة . الهيئة المصرية العامة
للكتاب . 1993

6- عبدالرحمان الكواكبي : طبائع الاستبداد .
بيروت . دار الشرق العربي 1991

7 . سمير أبو حمدان : الامام محمد عبيد ، جدلية
العقل والنهضة بيروت . دار الكتاب العالمي .
1992

8 . سمير أبو حمدان : جمال الدين الأفغاني وفلسفة
الجامعة الإسلامية بيروت . دار الكتاب العالمي .
1992

9 . خير الدين التونسي : أقوم المسالك في معرفة
أحوال المسالك تقديم ودراسة معن زيادة بيروت .
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر . 1985

10 . أحمد بن أبي الضياف : إنحاف أهل الزمان
بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان تونس .
الدار التونسية للنشر . 8 أجزاء . 1989

11 . محمد عابد الجابري : إشكاليات الفكر العربي
المعاصر . بيروت . مركز دراسات الوحدة العربية
1989

شكري غالي : النهضة والسقوط في الفكر المصري
الحديث بيروت . دار الطليعة 1978

فادي اسماعيل : الخطاب العربي المعاصر ، قراءة
نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة بيروت ،
المؤسسة الجامعية للدراسات 1991

12 . الجبرتي : عجائب الآثار ، ج 1 ص 12

13 . المصدر نفسه ، ص 12 ج 1

بحفرباستمرار حتى العثور على غايته الأولى
التي تشجعه على مواصلة الحفربأشياء أخرى
من هذه الزاوية ، تتعدد قراءاتنا للجبرتي
حسب تعدد وتنوع القراء وأدواتهم وأسئلتهم
ومشاغلهم فليست هناك قراءة أفضل من
قراءة لأنتهما تطمحان وإن اختلفتا إلى
الوصول إلى أقصى طاقة تفسير نص أو
ظاهرة تاريخية أولوحة فنية وهذا يعني . في
العلوم الاجتماعية والانسانية والتاريخية .
لاوجود لقوانين ومقاييس ومعايير وضوابط
في المطلق وثابتة وكونية فالمسألة نسبية
والنسبية تقتضي الاختلاف والتنوع
والتكامل .

الهوامش:

1 . جورج طرابيشي : مذبحة التراث في الثقافة
العربية المعاصرة بيروت . دار الساقي . ط 1 .
1993 . 135 صفحة

2 . عبد الرحمان الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار في
التراجم والأخبار بيروت . دار الجليل . دون تاريخ . 3
أجزاء .

الجزء الأول : 670 صفحة

الجزء الثاني : 663 صفحة

الجزء الثالث : 634 صفحة

3 . جورج طرابيشي : المتحفون العرب والتراث .
التحليل النفسي لعصاب جامعي دار الريس . 1991

محمد عابد الجابري : نحن والتراث . قراءات
معاصرة في تراثنا الفلسفي بيروت . دار الفارابي .
1980

4 . علي حرب : التأويل والحقيقة . قراءات تأويلية

- 45 . المصدر نفسه ، ص 19 / 20
- 46 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار ج 3 ، ص 331
- 47 . المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 143
- 48 . المصدر نفسه ، ج 2 ص 95
- 49 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار
ج 2 ، ص 50
- 50 . المصدر نفسه ، ج 1 ص 47
- 51 . المصدر نفسه ، ج 2 ص 57
- 52 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار ...
ج 3 ص 515
- 53 . المصدر نفسه ، ج 2 ص 55 - 56
- 54 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار ...
الجزء 1 ص 537
- 55 . المصدر نفسه ، ص 86
- 56 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار ...
ج 1 ص 610
- 57 . المصدر نفسه ، الجزء 3 ص 119
- 58 . المصدر نفسه ، الجزء 3 ، ص 183
- 59 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار ...
ج 2 ص : 459 - 460
- 60 . المصدر نفسه ، ج 2 ص 479 - 480
- 61 . المصدر نفسه ، ج 1 ص 113 ، 232 ، 364
- 409 ، 416 ج 2 : ص 60 ، 103 ، 147
- 173 ، 355 ، 521 ج 3 : ص 46 ، 106
- 144 ، 232 ، 381 ، 416 ، 587
- 62 . المصدر نفسه : ج 1 ص : 553 ، 570 ،
ج 2 ص : 440 ج 3 ص 470 و 587
- 63 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار
ج 1 ص 232 ، 248
- 64 . المصدر نفسه ، ج 1 ص 525 ، 595 ، 650
- 14 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار ج 1 ص 5
- 15 . المصدر نفسه ج 1 ص 5
- 16 . المصدر نفسه ج 1 ص 6
- 17 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار ،
الجزء الثاني ، ص 179
- 18 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار
الجزء 2 ص 35
- 19 . المصدر نفسه ، الجزء الثاني ص 233
- 20 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار ج 2 ص 233
- 21 . المصدر نفسه : الجزء الثاني ص 308
- 22 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار . الجزء 1 ص : 6
- 23 . المصدر نفسه ، الجزء 1 ص 6
- 24 . المصدر نفسه ، الجزء 1 ص 9
- 25 . المصدر نفسه الجزء 1 ص 9
- 26 . انظر : Méthode و Méthodologie - في :
-Dictionnaire encyclopédique
Universel, Paris, Ed. Précis, 1998,
-Le Grand Dictionnaire
encyclopédique de la langue
française, Paris, Ed. de la
connaissance, 1996, pp.709-710.
- 27 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار . الجزء 1 ص 5
- 28 . المصدر نفسه ص 5
- 29 . 30 . 31 . 32 . 33 م . ن : ص 5
- 35 . الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار . الجزء 1 ص 5
- 36 . 37 . 38 . 39 م . ن : ص 12
- 40 . الجبرتي ، تاريخ الآثار الجزء الثاني
ص 182 ، 184
- 41 . المصدر نفسه ص 208
- 42 . المصدر نفسه ص 210
- 43 . المصدر نفسه ص 307
- 44 . الجبرتي ، تاريخ عجائب الآثار ج 2 ص 18

تونس والمجتمع المدني

الخلفيات التاريخية والمسؤوليات الحضارية

المجتمع والمدنية - دلالات ومفاهيم (2)

بقلم : عبد الجليل الميساوي

التعاون والتكامل مع غيره ، هذا التعاون الذي هو الحاجة الحيوية والمطلب الضروري من الاجتماعى فالتناس إنما يجتمعون للتعاون في تحصيل المعاش ، وبالإجماع تنشأ للناس حاجات جديدة وتقتضي حياتهم الاجتماعية مطالب جديدة وخدمات مستحدثة ماكانوا يحتاجونها في حالات التشتت والافراد ومن ثم تنشأ فيهم قوانين جديدة وتقاليد جديدة وتنظيمات حادثة هي قوانين الحياة الاجتماعية فلا يستغنون على حكم يحكمون إليه في منازعاتهم ويتولى تنظيم أمورهم وشؤون حياتهم فتكون الحاجة إلى سلطة وهيئة حاكمة ، ومن ثم ينتهي ابن خلدون إلى تقرير أهم للمجتمع المدني وهو تأكيد أن حياة المجتمع مهما كان وضعه الحضاري لا تستقيم بل لا تكون ممكنة أصلا بدون تنظيم سياسي ، هذا المبدأ الأساسي في طبيعة المجتمع البشري انتهى إليه ابن خلدون من خلال سلسلة من المبادئ الاجتماعية والسياسية منها مبدأ « الإنسان مدني بالطبع

* قيم المجتمع المدني في الفكر الخلدوني
لقد سجلت مسيرة قيم المجتمع المدني في الحضارة التونسية أروع قفزاتها على يد مؤسس علم الاجتماع عبد الرحمان ابن خلدون (1332 - 1406) الذي عمل على صياغة نظرياته الاجتماعية والسياسية من الواقع الموضوعي للمجتمع العربي الإسلامي بعيدا عن المثالية التي غرقت فيها نظريات المفكرين العرب والمسلمين من قبله مثلما فعل أبو نصر الفارابي (ت 950 م) في كتابه « المدينة الفاضلة » وابن مسكويه (ت 1030 م) في نظريته المتعلقة ب « ماهية العدل وأبو الحسن الماوردي (ت 1058) في كتابه « الأحكام السلطانية » ذلك أن ابن خلدون تجاوز ربط الكيان الاجتماعي بالطبيعة الروحية المعتقدة في الإنسان وتجاوز أيضا ربط ذلك بما في هذا الإنسان من طموحات غريزية ليربط كل سلوك اجتماعي أو سياسي للفرد أو الجماعة بحاجات الإنسان الحيوية لتحصيل القوة والظفر بالأمن والحماية ، وباعتماده الكلي على

2 - الملك السياسي ويعرفه بأنه 1 حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنياوية ودفع المضار « وهو نوع من السياسة العقلية يوجب انقياد الناس إليها مايرجونه من ثواب الحاكم وجزاءاته أو يخافونه من عقابه ، ويقسم ابن خلدون هذا النوع إلى ضربين من السياسة :

أ - سياسة حكمية تقوم على الموازنة بين سلامة مصالح جهاز الدولة ومصالح مواطنيها وتحصر على أن تكون سلامة إحدى المصلحتين على حساب الأخرى .

ب - سياسة قهرية استبدادية تعطي الأولوية المطلقة لمصالح جهاز الدولة وسلامة نظام الحكم ولو كان ذلك على حساب سلامة مصالح المواطنين في أموالهم وأبدانهم وحررياتهم العامة .

3 - ملك ديني ويعرفه بأنه « حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي لتحقيق مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها وهو يستند إلى شرع منزه عن عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالشواب والعقاب الأخروي أو الديني الموروث عن مبلغ الشرع » .

وإن المتأمل في هذا التقسيم المخلدونى ليستقرئ من خلاله تصور ابن خلدون للملامح المجتمع المدني بصورة لاتبعد كثيرا عما نتصوره اليوم وكفيينا من تقريره خصوصيات

« ومبدأ « العدل أساس العمران » و « الظلم مؤذن بخراب العمران » ، ولايقف ابن خلدون في تنظيراته الإجتماعية عند تقرير حاجة الناس إلى نظام وهيئة حاكمة وعدم استغنائهم عن وازع ورقابة خارجية تحكم بينهم وتنظم شؤونهم وتوجه سلوكهم ومعاملاتهم وتمنع التظالم بينهم بل تتجاوز ذلك إلى بحث طبيعة الملك « ويعني به نظام الحكم والسياسة فيحدد النماذج الممكن وجودها منه في المجتمعات البشرية ويحصرها في ثلاثة أنواع رئيسية هي :

1 - الملك الطبيعي ويعرفه بأنه « حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهرة » وهو حكم يقوم أساسا على الغلبة والقهر واغتصاب السلطة بالقوة والعنف أو بالمغالطة والمكر والخديعة ويشمل هذا النوع في أيامنا هذه :

أ - الحكم الحاصل بواسطة الغزو الخارجي والإستيلاء الإستعماري وإن تقلص وجوده .

ب - الحكم القائم على انقلابات عسكرية لايعقبها تسليم السلطة إلى المدنيين وإرساء قواعد دستورية تعيد السيادة إلى الشعب .

ج - الحكم القائم على اتلاعب وتزوير قائم على التلاعب وتزوير الانتخابات واستغلال جهل الجماهير الشعبية أوعدم مبالاتها ، فهو وإن بدا من نوع الملك السياسي فإنه إنما يستعمل السياسة لستر فجاجته .

السياسي أو الفكري ممّا يفتح الباب إلى إمكان ظهور عصبيات من نوع جديد غير التي عرفها الناس في عصر ابن خلدون ومنها ما نراه اليوم من العصبيات الكثيرة المتنوعة التي أصبح لها وزنها النوعي في سياسات الدول نكتفي منها بالإشارة إلى :

1 - عصبيات أيديولوجية بجسمها التفاف الناس حول قناعات مشتركة تنظم فيئات منهم لتكوين تيارات فكرية ومذاهب سياسية تحدّد لهم مواقف معينة من قضايا السياسة والحكم وتصور اختيارات المجتمع وتقرير مصالحه سواء كان ذلك في إطار أحزاب سياسية رسمية أو لم يكن .

2 - عصبيات مهنية أو فئوية تتمثل في هذا العدد الهائل من التنظيمات النقابية والشبابية والنسائية ، فهذه نقابات للعمال والمستخدمين وهذه نقابات للأعراف من الصّاع والتجار وأرباب المهن وهذه نقابات للفلاحين ونقابات للطلبة ووداديات مختلفة الاختصاصات واتحادات وفروع منظمات هي أساس المجتمع المدني متى أقامت علاقاتها فيما بينها وبين المجتمع من ناحية وبينها وبين السلطة من ناحية أخرى على الحوار والتفاهم والتعايش السلمي ، وهي المعول الهادم لقيم المجتمع المدني متى سادها التعصّب وغلب عليها أو على بعضها النزوع إلى الهيمنة واستعراض

السياسة الدينية الوقوف عند عبارة « الدينية الراجعة إليه » لتنبين من خلاله قناعة ابن خلدون بأنّ مصالح دنيوية كثيرة لاترجع إلى الدين ولاتمتّ إليه بصلة وليس له بها تعلق أصلا وإنّ مبدأ شمولية الشريعة والدين لجميع مجالات الحياة إنّما فرضه الغلو في الدين والتعصّب المذهبي وبالتالي سيطرة التيارات النقلية واستبعاد التوجّهات العقلية المستنيرة بعد انهيار المعتزلة والحرب التي شنها الغزالي والحنابلة على الفلسفة والفلاسفة .

وهكذا يحدّد ابن خلدون قيمة هامة من قيم المجتمع المدني الحديث مضمونها : أنّ لأحكام الدين حدودا تقف عندها لتفسح المجال للإجتهد العقلية وللتجربة والممارسة الموضوعية كي تقرر في استقلال وحرية ما يصلح للجماعة وما لا يصلح لها ، ومن ناحية أخرى فإنّ ابن خلدون يبني استقرار الدولة وسلامة النظام السياسي القائم على محدودية الخلافات العصبية المكوّنة لهذه الدولة وذلك منه يعني التأكيد على ضرورة المرونة والتسامح بين مختلف القوى والتيارات أو بين الأجناس والعرقيات ومن الأکید أنّ مصطلح « عصبية » عند ابن خلدون لا يقف عند حدود العصبيات العرقية أي عصبيات النسب والجنس والولاء ، والتحالفات وإنّما يتجاوز ذلك إلى عصبيات الولاء المذهبي الديني أو

العضلات وقد شهدت بلادنا من ذلك شيئا غير هين ولا قليل خلال أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات، وربما يكون الفكر الخلدوني أكثر وضوحا في تحديد ملامح المجتمع المدني خلال استعراضه خصوصيات المجتمع الطبيعي والبدائي و « بضدها تتميز الأشياء » ومن خصوصيات المجتمع البدائي :
1 - مجتمع عصبية وعنف يقوم على الغلبة والقهر

2 - مجتمع لا وطني ليس له ما يربطه بالأرض فهو مجتمع مستهلك ولازه دائما لمنفعته الاستهلاكية ، من أبرز مظاهره في عصرنا نزعة الزواج سواء من الأرياف إلى المدن أو من العالم الثالث إلى العالم المتقدم
3 - مجتمع يتنكر لحلفائه بمجرد تحقيق النصر رغبة في الانفراد بالمجد مثلما فعل المنصور العباسي مع قائده [أبو مسلم الخراساني] باني دولة بني العباس ومثلما فعل أبو عبيدة الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية بتونس مع قائده ومؤسس دولته [أبو عبيد الله الصنعاني]

4 - استبدال الحلفاء القدامى بحلفاء جدد مصطنعين
5 - انغماس في الترف والتعظيم وإيثار حياة الدعة والسكون وهو ما نعبر عنه اليوم بالعقلية الاستهلاكية

6 - فقدان النخوة والأريحية والاعتماد على الذات فيكون التسفكك ويكون الانهيار والضعف والشعور بالخطر وتحول الإنحاء من الاعتماد على الذات في إنتاج ما تحتاج إليه إلى الاعتماد الكلي على المال والجند فيكثر المرتزقة ويتسلل الانتهازيون إلى المناصب القيادية في الدولة والمجتمع ويصبح العدوان على حقوق الانسان وانتهاك حقوق المواطنة ممارسة يومية تشغل كاهلهم بالجبايات والمغارم والمصادمات والاحتكاكات فيكون من كل ذلك ما سمّاه ابن خلدون « الظلم المؤذن بالخراب »
*محاولات الإصلاح الأولى وملامح المجتمع المدني :

لئن كانت الدعوة إلى الإصلاح والأخذ بقيم المجتمع المدني قد بدأت تأخذ مكانها في الفكر التونسي بوضوح وجلاء منذ أواسط القرن التاسع عشر فإن لها جذورا مباشرة تمتد إلى أواخر القرن الثامن عشر إلى عهد حمودة باشا باي [1759 . 1814] هذا الباي الذي عرف الناس في سلوكه وسياسته الداخلية كثيرا من القيم الأساسية لإقامة المجتمع المدني نكتفي منها بالإشارة إلى الممارسات التالية :

1 - كان كثير المشاورة لرجال دولته بكرة الاستبداد بالرأي ولا يأنف من الاعتراض على بعض آرائه ولا يتحرج من الرد عليه .

الشعور بالانتماء وروح الاعتزاز بالهوية والذاتية الوطنية ، وبمضي عهد حمودة باشا وما عقبه من فترات كادت تنسى الناس ما حاول ترسيخه من قيم نبيلة ثم يأتي المشير أحمد باشا باي [ت 1851] حاملا معه تطلعات جديدة فأعجز جملة من المحاولات التي تعتبر من صميم قيم المجتمع المدني الحديث ولا يقلل من أهميتها ولا ينقص من قيمتها فشله في هذه المبادرات الساسية والعملية ، والنتائج السلبية المترتبة عن هذا الفشل وتكفيها الإشارة هنا إلى الإجراءات التالية :

1. إلغاء النخاسة وإبطال بيع الرقيق مع ما في هذا العمل من رد الاعتبار للكرامة البشرية ، ومن حفظ لحقوق الإنسان ، وتكريس لمبدأ الحرية الذاتية والمساواة في الحقوق الطبيعية .

2. حرصه على إدخال الأنظمة الحديثة وبناء دولة عصرية بعلمها وصناعاتها وسمعتها وهبتها ومكانتها بين الدول .

3. رفضه النظام الشمولي وحرصه على تحقيق الاستقلال والسيادة الوطنية لشعبه وبلاده ، ثم جاء عهد محمد باي [1811 - 1859] ليضيف أهم اللبئات إلى أسس المجتمع المدني الحديث سبق بها غيره من حكام الشعوب الإسلامية والرقية عامة وهي :

أ . محاولته تأسيس حياة دستورية لتنظيم

2. ميله الشديد إلى التقشف وكرهه الإسراف في غير مصلحة ظاهرة .

3. حبه لوطنه وحرصه على سلامته والمبادرة بالتصدي إلى كل خطر يهدد وجوده وأمن موطنه أو ينال من هيئته

4. حرصه على تربية شعبه وهدايته إلى طريق الخير والنجاح

5. أنه كان لا يتباهى إلا بما هو من الإنتاج التونسي ولا يلبس إلا من المنتجات التونسية

6. تشجيعه الاحتراف ونشر الصناعات اليدوية حتى أنه مارس بنفسه بعض الصناعات البسيطة التي لا يحتاجها أصلا ولا غرض له منها إلا إعطاء المثل لشعبه بأن الأعمال ليس بينها حقير وجليل وإنما كل عمل هو جليل ورفيع

7. رفعه قيمة العمل والعاملين واعتباره لأهمية الثورة الاقتصادية الشخصية منها والوطنية حتى أنه يقول ويردّد على مسامع الناس بمناسبة وبدون مناسبة 1 زينة الرجل ماله وعمله وإنّي لا أبغض أحدا من شعبي إلا البطال الذي لا نفع منه للوطن وأحبّ النّاشط ولو برعى البقر [.

ومن ثمّ فهو بهذا السلوك وهذه الممارسات إنما كان يرسي أسس أهم مقومات المجتمع المدني إذ يحرص على تربية شعبه على الاعتماد على الذات ويرسخ في نفوسهم

أبي الضياف وخير الدين التونسي إلى محمد علي الحامي والطاهر الحداد ، فقد حملت كتابات هؤلاء وغيرهم أفكارا على غاية من التقدمية والدعوة إلى اعتماد العمل العقلي والاحتكام إلى نتائج العلم وقوانينه ومكتشفاته وجسّمت تمسكا صريحا وواضحا بمبادئ الحرية والعدالة والمساواة الأمر الذي مهد إلى ظهور أنظار إصلاحية جادة ومتكاملة قوامها التماس معايير جديدة للعشرة والتعايش الإنسانيين ، ونظام جديد للعلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ومنطق جديد للفكر والثقافة فقد سعى خير الدين إلى وضع تصوّر نظري للمجتمع المدني ضمّنه في كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » نهج فيه منهج ابن خلدون في تصوّر قوانين العمران البشري وعمل على تطبيق تصوّراته النظرية وتجسيمها على أرض الواقع من خلال مشروعه الإصلاحي لتوفير حدّ مقبول من النمو الاقتصادي والرفق الاجتماعي فحاول جاهدا تعصير التعليم وإصلاح الوضع الفلاحي وإنقاذ المالية العمومية من الإفلاس التي يشهدها وتنشيط الصناعات المحلية فكان له من ذلك مشروع حضاري متكامل كان بالإمكان أن يفضي إلى وضع الأسس الضرورية لإقامة مجتمع مدني حديث المقومات لو كتب له النجاح .

الحياة الاجتماعية والسياسية وجعل المعاملات السياسية والاقتصادية والاجتماعية مبنية على أسس قانونية تحدد صلاحيات مؤسسات الدولة وحقوق المواطنين وواجباتهم نحو بعضهم ونحو بلادهم ونحو الأقليات التي تعايشهم فيها ويتمثل ذلك في قانون 10 ديسمبر 1957 المسمّى بقانون « عهد الأمان »

ب . الفصل بين السلطة التنفيذية والسلطة القضائية من خلال تخلي الباي عن النّظر في القضايا العدلية لغائدة المجلس الشرعي .

ج . الشروع في تأسيس أول نواة للجماعات العمومية والمحلية من خلال بعث أول مجلس بلدي لمدينة تونس العاصمة سنة 1858 .

فاذا أضفنا إلى ذلك المحاولات الإصلاحية التي تمت في عهد محمد الصادق باي (1812 . 1882) وجاء به

دستور 29 جانفي 1861 من فصل . ولو نظريا . بين السلط ، ومن تقبيل لسلطات الباي ، اكتمل لنا من ذلك عقد مترابط الحلقات من محاولات الإصلاح والتحديث ووضع الأسس والمقومات الضرورية لبناء المجتمع المدني ، يجعل تونس أحد الأقطار الرائدة في هذا المسار الحضاري الذي تبلورت ملامحه من خلال التنظيمات الفكرية التي تضمنتها بعض كتابات رواد الحركة الإصلاحية في تونس على توالي أجيالهم من أحمد ابن

* الحركة التحريرية ومقاومة الإستعمار :

لئن أبعد خيسر الدين وعطل مشروعه الإصلاحي ، ولئن خضعت البلاد بعده بقليل للهيمنة الاستعمارية والحكم الأجنبي ، فإنَّ روح الإصلاح والتطلع إلى تحقيق شيء من الحداثة ومكاسب المجتمع المدني في تونس لم تمت في النفوس بل ظلَّت هذه التطلُّعات قائمة في رؤى العديد من المفكرين التي تعززت صفوفهم بظهور نخبة من الشباب المثقف الناقم على الهيمنة الاستعمارية والمندفع نحو تجنيد القوى الوطنية لغاية النضال من أجل إلغاء التفاضل والميز العنصري المسلَّط على الأهالي، ولم لا من أجل التحرر وإلغاء الحماية أساسا، ومن هذا القبيل ما يمكن رصده من أفكار وممارسات بدت واضحة جليَّة في حركة الشباب التونسي . ثمَّ ما ظهر بعد الحرب العالمية الأولى من بعض الأحزاب والتنظيمات السياسية التي لا تخلو جميعها من بحث عن الذات وتطلع إلى الحداثة ومطالبة بإلغاء الفوارق والامتيازات التي يتمتع بها الفرنسيون والجاليات الأجنبية الأوروبية على حساب التونسيين والعرب المسلمين والشرقيين عامة ، إلا أنَّ ما يلفت النظر في هذا كله ما تميَّزت به الحركة الإجتماعية التي تزعمها محمد علي الحامي وصديقه الطاهر الحداد ، فقد أقام الأوَّل

مشروعه التحريري والإصلاحي على التوسُّع في بعث التنظيمات التضامنية لإقامة مجتمع مدني حقيقي يستند في وجوده وفي تلبية مشاغله وحاجاته إلى التضامن الشعبي والإعتماد على الذات ، وأقام الثاني مشروعه على إصلاح الأسرة التونسية وتحرير المرأة من كابوس التقاليد المحسوبة على الدين ، ولئن أخذت الرجلان رجَّة عنيفة هزَّت أركان التفكير الديني والاجتماعي وزعزعت مسلَّمات الفكر السياسي والاقتصادي ، ولئن كانت نهاية المشروعين مأساوية مريعة بالنسبة لصاحبيهما، فإنَّهما مثلاً تجرِّبة ثريَّة خصبة غدَّت جذور الحركة إصلاحيًا وبلورت التطلُّعات المشرَّبة إلى تحقيق مجتمع حرٍّ ينعم بالعدل والمساواة ويغيب فيه الظلم والميز بين الأجناس وبين النساء والرجال بقوده وبوجهه فكرٌ مستنير سليم من التقليد والدغمائية والتسليم الأعمى وهي تجرِّبة كان لها أثرها فيما بعد ، فقد تعددت وتنوعت التنظيمات والجمعيات التي تعمل تحت ستار النشاط الشقافي أو الخيري لاستقطاب القوى الوطنية وتربية الناس على الإعتماد في تحقيق طموحاتهم وتغيير أوضاعهم نحو الأفضل ، وإقناعهم بما هم مقتنعون به من بأس كامل من انتظار تلبية تلك المشاغل من طرف دولة الحماية وسلطة البايات الذين لا سلطة لهم في حقيقة الأمر .

* الاستقلال وبناء الدولة الحديثة :

إن الحركات الإصلاحية لتبلغ أوجها وقمة مجدها ونجاحها متى اجتمع التنظيم والتنفيذ على صعيد واحد وبيد واحدة ، وهو ما أعطى لحركة محمد علي الكبير في مصر وحركة خير الدين في تونس ثم حركة مصطفى كمال في تركيا مكانة متميزة في تاريخ النهضة العربية والإسلامية الحديثة ، وهو نفسه ما أعطى لإصلاحات بورقيبة في عهد الإستقلال طعما خاصا ووثر له شروط النجاح مالم يتوفر لمشاريع كثيرة سابقة ولاحقة فقد كان له من إمساكه بزمام السلطة والقيادة ما ساعده على أن يضع القناعات الحضارية التي آمن بها وحلم بها طويلا ، موضع التنفيذ ، ولقد كان له من روعة المبادرات الإصلاحية مالا ينكره إلا متعصب مكابر ، فقد وجه حكومة الإستقلال إلى تكريس جهودها لبناء الدولة على أسس الحداثة والمعاصرة ، وسعى بجد ودء إلى تجديد مؤسسات الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وإنه ليكفي لنا للتأكد من جدية الإصلاحات التي تحققت على يد هذا الزعيم التونسي وعمقها أن نقف عند المبادرات التالية :

1 - توحيد القضاء الذي كان مشتتا بين قضاء شرعي مالكي وحنفي ، وقضاء فرنسي ، وقضاء مختلط ، وقضاء طائفي بهم الجالية

الإسرائيلية بالبلاد التونسية ، بما في هذا التشتت من تكريس للميز العنصري بين الأجناس والأديان ، الأمر الذي يجعل القضاء الموحد وخضوع الكل إلى قوانين موحدة تطبق على الجميع وتحقيق المساواة وتحفظ الحقوق بينهم وتلزمهم باحترام الواجبات بقطع النظر عن اختلاف أجناسهم وأديانهم عملا حضاريا وسلوكيا مدنيا وخطوة نحو المجتمع المدني .

2 - تحرير المرأة وتنظيم الأسرة من خلال إصدار مجلة الأحوال الشخصية بما تضمنته من مبادئ المساواة بين الجنسين وحماية حقوق المرأة وحقوق الأسرة .

3 - إعلان الجمهورية وإلغاء الحكم الوراثي والغاء الامتيازات والغاء الامتيازات والاستثناءات القانونية التي كان يتمتع بها أفراد العائلة المالكة .

4 - وضع دستور وطني كان أول الأثر القانونية الكفيلة بتأمين مسيرة المجتمع المدني في البلاد وحمايته من الإنكسار .

5 - توحيد التعليم وتعميمه بما تضمنته هذا الإجراء من ضمان لتكافؤ الفرص بين المواطنين ، ومن ضمان للتجانس الفكري والوجداني بينهم ومن حماية للوحدة الوطنية التي سوف تكون مهددة بأخطار التفكك والتشذرم لو وقع الإبقاء على الاختلافات

نشوة النصر والإعتزاز بالتفاف الشعب حوله وانقياده له ، وسهولة الإنجازات الأولى وروعتها ، قد أغرته بالمزيد فأراد أن يصلح كل شيء . وكما يقول المثل التونسي « اللي يحب الكلّ يخسر الكلّ » والمصلح الواعي يسير التاريخ وطباع المجتمع هو من يصلح ويترك لغيره ما يصلح بعده ، أمّا من يريد أن يصلح كل شيء ، فهو في الغالب لا يصلح شيئا وهو ما حدث للزعيم بورقيبة فقد نسي في غمرة حماسه للإصلاح سياسة المراحل التي كان دائما ينوّه بها ويفتخر بالتزامه إياها ، وإنّ تحقيق إصلاح شامل وسريع لا يمكن أن يتمّ بسلام ودون مضاعفات سلبية في مجتمع حديث العهد بالاستقلال محدود الوعي الثقافي مازال أسيرا للوجدان الغامض الذي يختلط فيه الدين بالخرافة ، والوطنية والقومية بالتعصب ، والانتماء الملي والقومي بكران الذاتية المحلية والانتماء الإقليمي الوطني ، هذا الإختلاط يجعل من كلّ محاولة للإصلاح بمثابة انقلاب فجئي يحدث في الأذهان والحال أنّ الهزات الانقلابية والتغييرات الفجائية المتعجّلة لاتسلم عادة من ردود فعل عكسية فقد كانت التغييرات الجذرية والهياكل الإدارية والعلاقات الإجتماعية والقيم الثقافية والمفاهيم الدينية التي كان بورقيبة يعلنها كل يوم أو كلّ أسبوع على أكثر تقدير تصدم بقوة

الجذرية التي كانت عليها مناهج التعليم وبرامجها بين زيتوني وصادقي من ناحية ، وتعليم عربي ، وتعليم فرنسي ، وتعليم فرنسي عربي ، إلى جانب ما كان بين الحريجين من تعارض وتناقض تقليديين يصلان إلى حدّ العداء والتحاقر الذي لا يمكن أن يسمح بوجود مجتمع مدني .

* أخطاء وانتكاسات :

لئن أثبتت إصلاحات بورقيبة ما يتمتع به هذا الرجل من عبقرية ، وما يتصفّ به من إخلاص للحدّات والحرية ، وما نجح فيه من إرساء أسس المجتمع المدني الذي وضع به الشعب التونسي على طريق التقدّم والتطوّر والعقلانية ، فإنّه قد ارتكب أخطاء أجبرته فيما بعد على الكثير من التراجعات التي وصلت إلى حدّ الانتكاس والنكوص على الأعقاب ، وليس من المبالغة أن نقول : إنّها وصلت به إلى حدّ التنكّر لكثير من المكاسب ، والندم على التسرّع في إنجازها ، وتكفينا الإشارة إلى بعض الأخطاء :

1 - التعجّل : لا يمكن الشكّ في أنّ بورقيبة كان شديد الحبّ لشعبه ووطنه ، وأنّه كان حريصا على أن يحقق لهذا الشعب أقصى ما يستطيع تحقيقه له من شروط التقدّم والإزدهار والأمن والسعادة وفرحة الحياة ، كما كان تعبّيره عن هذا المطمح الأساسي ، ولاشكّ أنّ

الخاصة ، وتقتضي توجيه الهمم والمجهود نحو التضافر والتآزر في سبيل تحقيق الغاية الأولى والهدف الأكبر والأسمى وهو تحقيق الاستقلال وتحرير الوطن من الحكم الأجنبي ، الأمر الذي جعل من الحزب الحرّ الدستوري تجمّعا وطنيا باتمّ معنى الكلمة انصهرت فيه مختلف التيارات والأيدولوجيات ، فهناك تيار ليبرالي لا يشكّ في وجوده ، وهناك تيار قوميّ عربيّ وهناك تيار ديني إسلامي ، وتيار عمالي ، وآخر اشتراكي إلى غير ذلك من التيارات الناشئة والتي ما كان لها أن تعلن عن نفسها خارج إطار الحركة التحريرية وخارج الحزب الحرّ الدستوري الذي أصبح يمثل بحق الرمز الوحيد للحركة الوطنية في تونس والمحور المركزي الذي يلتف حوله كلّ التونسيين حتى كان الوعد بالاستقلال الداخلي وكان الإتفاق على إنهاء الثورة المسلحة وإلقاء السلاح ، ثمّ كان إعلان الإستقلال الداخلي يوم 20 مارس 1956 وكان من كلّ ذلك مناسبات تفجير وحدة الحزب الحرّ الدستوري وظهور الاختلاف والانشقاق في صفوفه فقد رأى أصحاب التوجّه القومي العربي في الإستقلال الداخلي خطوة إلى الوراء . وأنّه لا يخلو من خذلان للأشقاء الجزائريين ولثورتهم الناشئة ، بل إنّ إنهاء الثورة وإلقاء السلاح ليمثّل في نظرهم خيانة كبرى للقضيّة الوطنيّة وللوحدة

العقليّات المحافظة التي لم تهيباً بما فيه الكفاية لتقبّل هذه التغييرات ، وتهزّها هزاً عنيفا ، وتكوّن منها عبر الأيام نوعا من المعارضة الصامتة المترقبة التي تعلن الولاء وتعمل في الخفاء وتجد الدعم الخارجي والمؤازرة الماديّة والمعنويّة منبعض الأشقاء حين أفضت في النهاية إلى محاولة انقلابيّة جسّمتها مؤامرة 25 ديسمبر 1962 تلك التي كانت مناسبة وعاملا مهما لإعلان تراجع انتكاسية ذات أثر واضح على المسار الديمقراطي وقيم المجتمع المدني في تونس .

2. الصراعات الأيديولوجيّة :

عند استقلال أيّ شعب وخروجه من الهيمنة الإستعماريّة يكون في الغالب عبارة عن فضاء مفتوح لاصطراع الأيديولوجيات ، إذ نادرا ما تكون سيادة أيديولوجية لتسيار غالب يتمتّع بالسيطرة المطلقة ، ومن ثمّ يسارع كلّ تيّار أيديولوجي إلى محاولة أخذ مكان الصدارة في الدولة الجديدة ويعمل جاهدا على الظهور واستقطاب أكثر ما يستطيع استقطابه من فبشات الشعب ، فتنشأ الصراعات وتتحدث ردود فعل ومتنوعة ، وهذا ما حدث فعلا بتونس عن الإعلان عن أول مبادرة من بوادر الاستقلال فقد كانت وحدة الهدف خلال فترة الكفاح الوطني تستلزم التخلّي عن النزاعات والتوجّهات الفكرية والأيديولوجية

الصراعات آثارها في المجتمع التونسي والسياسة التونسية جميعا فمن الناحية الأولى وجد قطاع عريض من الشعب يدين بالولاء لبورقيبة في الظاهر ولكنه يحمل عداً وحقداً دفينين ، مما ستكون له فيما بعد آثاره الواضحة على قيم المجتمع المدني في تونس ، ومن ناحية أخرى كان عداً بورقيبة لصالح بن يوسف ومناصريه من القوميين العرب وغيرهم قد دفع به إلى النقمة على المناهج العربية في السياسة والتفكير وحتى في أساليب العيش والحياة وجره إلى محاولة التفصي من انتقاء تونس للعالم العربي والإسلامي أصلاً فأعلن القومية التونسية التي تجعل من تونس أمة ذات كيان وتاريخ مستقلين ، ليس ما يشدها إلى العروبة والإسلام بأكثر مما كان قد شدّها إلى الفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين ، وأعلن مقاومة الكثير من التقاليد العربية الإسلامية التي لاشك أنّ الكثير منها كان محسوبا على العروبة والإسلام ويتحق المقاومة فعلا ولكن ليس في نفس الظروف ولا بنفس الوسائل ، والطريقة التي مارس بها بورقيبة محاولاته لترقية الشعب التونسي وتخليصه من التقاليد والطرائق الحياتية المعيقة لبناء مجتمع مدني حقيقي ، وما اتّسمت به هذه الممارسات من سخرية مهينة لم تقف آثارها النفسية عند حدودنا وخاصة فيما يتعلق بصوم

المغربية ولل قضية العربية عامة ، في حين يرى التيار الليبرالي الذي يتزعمه صاحب نظرية ال [خطوة خطوة] في السياسة : أنّ الإستقلال الداخلي ليس هو إلا تطبيقاً لمبدأ « خذ وطالب » وأنّه لمصلحة الثورة الجزائرية وليس ضدّها مادام سيفتح لها أبوابا كانت لتتمتع بها لو بقيت تونس والمغرب الأقصى مستعمرتين .

ومن ثم فقد أفضى الخلاف إلى صراع حقيقي . وإلى حرب أهلية حقيقية ، سالت فيها دماء تونسية كثيرة بأيد تونسية ، ووجد التيار القومي العربي الذي اصطلح على تسميته « اليوسفية » دعماً ومساندة واضحة من جهات عربية في مقدمتها مصر ، ووجد التيار الليبرالي « البورقيبي » منساندات واضحة من السلط الفرنسية التي ما تزال لها مسؤولياتها في حماية الشرعية في البلاد التونسية ، والشرعية وقت ذلك كانت مع بورقيبة باعتباره الوزير الأكبر ، وفي دعمه حماية للعرش الذي تعتبر حمايته في مقدمة بنود معاهدة الحماية ثم تأكدت هذه الشرعية باختيار بوقيبة رئيساً للجمهورية بعد 25 جويلية 1957 وانتهت الحرب الأهلية واستقرت السيادة للتيار الليبرالي والبورقيبي ، وهدأت الأوضاع الأمنية . ولكن هيهات أن تهدأ النفوس وكان لا بد أن تترك تلك

أمر يتجاوز تأثيره الحدود التونسية ليمسّ في الصميم شؤون الدول والشعوب الشقيقة التي تشاركنا نفس القيم ونفس المقدّسات ، ويؤثّر على توجّهاها الساسية ، ومن ثمّ فإنّ هؤلاء الأشقاء أينما كان موقعهم من الرقعة العربية والإسلاميّة وإن لهم حق التدخل المباشر في الشؤون الداخليّة لتونس لتغيير دولتها فإنهم لن يتردّدوا في التدخّل بواسطة الدسائس والمؤامرات ومحاربة العمل على تغذية المعارضات في الداخل والخارج إلى جانب ما يمارسونه من تشويه إعلامي ، فكان لهم من ذلك وغيره عوامل كثيرة عملت على مرّ الأيام على زعزعة الثقة باصلاحات بورقيبة وخلق الصعوبات له في الداخل والخارج الأمر الذي اضطرّه إلى كثير من التراجعات عن قيم الحرّة والتعددية والمجتمع المدنيّ ...

رمضان وباللباس التقليدي وقد تعمّق في نفسه هذا الشّعور بالعداء والنقمة على العرب والعروبة والسياسات العربية بعد رحلته في الشرق الأوسط وخطابه بأريحية سنسنة 1965 وما تلا هذه الرحلة من توترات ومضاعفات .

3. المساس بالقيم المشتركة :

إنّ لكثير من القيم العربيّة والإسلاميّة خصوصياتها المميزة ، في مقدّماتها أنّها قيم مشتركة بين شعوب كثيرة ، وليس من السهل تغييرها أو حتّى تعديلها بصورة منفردة لأنّها ليست ملكا لشعب بعينه ، له أن يسقلّ بالتصرّف فيها بالتبديل والتغيير والإصلاح والتعديل ، وقد يقبل النقد الفكري ويجد ما يصغي إليه ويتعلّقه ، وقد يشرّ إصلاحا فعليّا على مرّ الأيام إمّا أن يكون هذا التغيير سياسة رسميّة تنفّذ بواسطة جهاز الدولة فهذا

يتبع

إنسانية الإنسان على مشارف الألفية الثالثة

بقلم : محمود الفرشيشي

إنّ هذا الخطاب الاحادي الموجه للإنسان دلت على أنّ هذا الكائن هو المسؤول عن إعمار الكون طبيعيا واجتماعيا وهو ما عبّر عنه القرآن بالاستخلاف في قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون » (البقرة 30) . إذن ما هو الاستخلاف . ولماذا خصّ الله به الإنسان دون غيره من الكائنات . وماهي المؤهلات التي أهلت الإنسان للقيام بهذا الدور . وما أثر ذلك في الطبيعة والتاريخ .

جاء في المدلول اللغوي للإستخلاف : استخلف فلان فلانا أي أقامه مقامه . فهل أنّ الخلافة خلافة الإنسان للإنسان أم خلافة عن الله عز وجل .

ففي تحديد معنى الخلافة ذهب العلماء مذهبين مختلفين :

المذهب الأول : يقول بوجود صنف من الحيوان

لقد أراد الله تعالى الإنسان إن يكون خليفته في الأرض فجاء خطابه في القرآن موجها إليه دون غيره من الكائنات .. جاء في صيغة المفرد كما جاء في صيغة الجمع فدل على أنّ هذا الكائن هو المسؤول المكلف . إنّ هذه المسؤولية أهلت الإنسان أن يكون سيد هذا الكون فهو المسؤول عن تغييره واقعه وتطويره ولا تكون الطبيعة المادية إلا موضوع فعله ويستعمل القرآن تعبير « السخرة » للدلالة على هذه العلاقة وهو تعبير قوي الدلالة على أن الإنسان هو صانع واقعه والقادر المسؤول عن تغييره ويتجلى ذلك في قوله تعالى « ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض » (الحج 65) وقوله « وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الانهار » (إبراهيم 32) .. ويقطع القرآن في أن شيئا من الواقع لن يتغير إلا إذا تغير الناس . قال تعالى « إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد 11) .

فبيها من كل زوج بهيج » (ق 6 . 7)
والايات الانعام 99 / القصص 71 + 72 /
الرعد 4 / الروم 22 / فاطر 27 . 28 /
الجاثية 43 / البقرة 164 / النذاريات 21 .
20 / فصلت 53 / الانبياء 22 / ...

إن عناصر الوجود وسنن حركته التي لا
تتبدل ذات وجود موضوعي سابق على وعي
الانسان فهي غير متوقفة وجودا أو عدما على
وعيه وماكان فرضا على الانسان أن يتأمل
الوجود ويسعى فيه ويكتشف سننه إلا لأن
الوجود وسننه قائمة قبل أن يعيها الانسان
وغير متوقفة على وعينه وإنها قابلة للوعي .
فهذا الانضباط الحتمي لحركة الوجود وعناصره
بنواميسه التي لا تتبدل إذ يعني أن كل شيء
قد خلق بقدر يثبت الضرورة وينفي الصدفة فلا
حدث يقع في هذا الوجود إلا طبقا لسننه حتى
لو لم يعرف الانسان أنه حادث (الغيب) أو
لم يعرف أنه حدث (المجهل) أو لم يعرف
كيف حدث (الصدفة) انكل حدث على هذا
النسق مخلوق بسنن حتمية لا إرادة للانسان
فيها .

إن انضباط حركة الوجود وعناصرها هو
الذي مكن الانسان المتميز بالعقل والقدرة على
العمل من أجل تحقيق مايريد أي أن يكون
حرا . فالضرورة شرط الحركة تحقق حتما بقدر
تطابق العقل مع سنن الوجود . ويتحقق اتفاق

تحمل الأمانة وأفسد في الأرض وهو ما حمل
الملائكة إلى القول وإبداء الرأي مشال ذلك
« إنسان جاوا » « إنسان نيا درتال » إنسان
قرمألدي ... والتي أثبتت الحفريات ووجود
شظايا عظيمة لجامعهم .

المذهب الثاني : يقول بأن الخلافة خلافة عن
عز وجل وأن سفك الدماء والافساد في الأرض
ناتج عن التناقض في ذات الإنسان بين
الجانب المادي والجانب الروحاني كما يذهب
إلى ذلك محمد باقر الصدر .

أبأ ما كان الأمر فإن الخلافة نياية على الله
عز وجل في إعمار الكون طبيعيا واجتماعيا .
فما موقع الانسان في الطبيعة والمجتمع .
لقد خلق الله الوجود بكل عناصره الظاهرة
والخفية المعروفة وغير المعروفة منضبطا في
حركته بسنن ثابتة لا تتبدل . إن هذا يؤكد
الحتمية فلا يمكن لمسلم أن ينكرها ويبقى
مسلمًا فقد اتخذ الاسلام من انضباط الكون
وثبات نواميسه حجة على الذين لا يؤمنون
ودعا الناس إلى أن يتأملوا ما في الكون من
آيات قال تعالى « سنة الله في الذين خلوا
من قبل ولم تجدل لسنة الله تبديلا » (الأحزاب
62) « ولنسج تجدل لسننتنا تحويلا »
(الاسراء 77) « أفلم ينظروا إلى السماء
فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروع
والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا

تعريف الظواهر ومعرفة قوانينها مخاطرة غير مأسونة ذلك أن أحكام التعريف أن يكون جامعا مانعا . فتعريف الظواهر تعريفا مانعا أمر بالغ الصعوبة هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن تعريفها يقتضي عزلها ولو مؤقتا عن بقية الظواهر لمعرفة سننها وعزلها يقتضي معرفتها ومن هنا فانا نعتقد أن المعرفة تسبق التعريف في كل الحالات .

إن المدخل إلى معرفة الانسان هو التعرف على عناصر تكوينه ويكاد يجمع علماء النفس أن الانسان يولد على « الفطرة » مزودا بقوى واستعدادات فأما القوى فهي القدرة على الفعل أو الترك وتتمظهر في القوى الذهنية والقوى الجسدية والقوى العصبية الانفعالية والقوى العاطفية والقوى الاجتماعية . وأما الاستعدادات فهي القدرة على قبول الشيء أو رفضه . وتنمو هذه القوى والاستعدادات وتتلور داخل المحيط الاجتماعي بمختلف مؤسساته من الأسرة إلى المدرسة إلى الشارع إلى مكان العمل ... ضمن سيرورة المراحل العمرية إبتداء من المرحلة الجنينية إلى مرحلة الولادة فمرحلة الستتين الأولتين والتي تكون فيها ذات الطفل ملتسقة بذات أمه فمرحلة الخمس سنين الاولى والتي تكون القاعدة الاساسية للشخصية وهي المحددة في توجه أفعال الانسان فمرحلة المراهقة فمرحلة الاكتمال

الفعل مع سنن الوجود بقدر ما يعرف الانسان من تلك السنن ويعقلها ويستخدمها في تحقيق ارادته .

إن الانسان في سعيه المتصل لاكتشاف الوجود وسننه قد اهتمدى حتى الآن إلى أن ثمة سنن عامة تضبط حركة كل شيء ويخضع لها كل شيء ويخضع لها كل شيء كسنة « الحركة » وسنة « التأثير » وسنة « التغير » . فكل شيء متحرك فالثبات مستحيل وإن كل شيء مؤثر في غيره متأثر به فالعزلة مستحيلة وإن كل شيء متغير فالدوام لغير سنن الوجود مستحيل .

إن كل شيء بعد هذا ينفرد بسننه الخاصة فما من طاقة أو مادة من جماد أو نبات أو حيوان أو إنسان من جنس أو نوع أو قرع أو صنف كل جزء إلا وله سننه الخاصة تميز بعضها عن بعض .

في نطاق هذا الكون وحركته المنضبطة بسننه التي لا تتبدل من القادر المسؤول عن تغييره أو تطوره . أوكما يقولون في الفكر الأروبي ما هو العامل الأساسي في حركة التطور ؟ يجيب القرآن الكريم إنه الانسان الفاعل الصانع المغير المطور ولا تكون الطبيعة المادية إلا موضوع فعله أما كيف فهذا يتطلب دراسة الانسان كظاهرة لمعرفة سننه الخاصة إذ هو المحدد في إبراز فعله وتغييره . والواقع إن

التي ننسبها إلى الإنسان سوى تلك المقدرة البشرية التي تجلّت لدى الإنسان الأوّل حين أبى أن يدع نفسه أسيراً بأي حد من الحدود كانتا مآكان.

معنى هذا أن الإنسان كائن طبيعي مضبوط في حركته شأن بقية الكائنات الطبيعية بنواميسها وستنتها العامة التي لاتتبدل ولكن رغم ذلك فهو كائن متعالى على الطبيعة فما العامل في تعاليه .

إنّ الذكاء الذي هو في حقيقته كما عرفه زكي صالح « مجموعة أساليب الأداء التي تشترك في الاختبارات التي تقيس أى مظهر من مظاهر النشاط العقلي والتي تتميز عن غيرها من أساليب الاداء الأخرى وترتبط بها ضجيفا على أن يتصل بعالمه الخارجي »

وقد عرفه علماء النفس بأمرين اثنين أولهما عام والثاني خاص فمن حيث العام يشمل الذكاء كل نوع من أنواع المعرفة مهما كان أصلها من إحساس أو ادراك أو تداع أو ذاكرة أو تخيل أو فهم . ومن حيث التعريف الخاص إليه من زاويتين :

* أولاهما : الذكاء الفعلي وهو القدرة على التلاؤم لحل المشاكل الجديدة والظروف الطارئة وذلك بتكييف الحركات والأفعال مع الحوادث الواقعية وصور الاشياء الخارجية .

* ثانيتهما : هو القدرة على التكيف

الذهني والجسدي والعصبي والعاطفي فمرحلة الاكتمال الاجتماعي ...

إن هذه القوى والاستعدادات تكون في مجموعها ذلك الكائن الفريد نوعيا إذ بدورها تمثّل « وحدة » متماسكة لايفني إحداها عن الأخرى فهي مجتمعة مؤثرة ومتحركة ومتغيرة ومتطورة في بعدها الزماني والمكاني .

فإذا كان الإنسان يشارك سائر الكائنات بأنه كائن طبيعي جعل للطبيعة ونشأ في أحضانها وصيغ على مقباسها فهو كائن عضوي وموجود طبيعي يشاركها في ماديتها فانه يعلو عليها وهو الموجود الطبيعي الذي لا يستخدم الطبيعة إلا لكي يستأنسها ولايندمج في الطبيعة . إلا لكي يتحلل منها ومن ثم فقد كان الإنسان ولايزال الموجود الوحيد الذي

يشير المشكلة الفريدة « الحرية » يقول زكريا ابراهيم في كتابه « مشكلة الإنسان » (ص 53) إذا كان الإنسان جزءا من الطبيعة مثله في ذلك مثل الحيوان فانه يمتاز عن الحيوان بأنه الجزء الذي يعكس الكل إذ ينظّمه وفقا لمقتضياته الخاصة وحين ينظم الإنسان الطبيعة فانه يعلو عليها بأنه يقيم بين الحافز والفعل « فاصلا » يتسلل منه الفكر إلى النظام الكوني نفسه ومعنى هذا أن الإنسان حين يتخطى الطبيعة فانه يركبها بوصفها طبيعة ويضع نفسه في مقابلها . وليس نعني بصفة التعالي

تذكّرا يشمل المادة والادراك إدراك واع للمادة، والتصور تشكيل ذهني للمادة فالمادة محتوى الفكر والفكر محيطها تتحدد به ويتحدد بها . اذ ان الانسان ينطلق في حركته من حاجته كما حددها ماضيه الذي يذكره متجها الى إشباع تلك الحاجة في المستقبل كما يتصوره فيعمل إشباعا لها وما يشبع فيها إلا بقدر ما يتفق مع سنن الظروف التي يعيش فيها وما أن يشبع حريته حتى تتجدد حاجاته فيتصور ما يشبعها ويحقق ما هو ممكن بما تصوره . فالحاجة سلب للحرية

والإشباع حرية متحققة وهكذا يسعى كل انسان حاجته المتجددة فيحقق مزيدا من الحرية « وليس تاريخ الحضارة البشرية في جملته سوى تاريخ العبيات التي استطاع الانسان التغلب عليها فحقق بذلك حريته » . وان اختلف مضمون هذه الحرية من انسان إلى انسان ومن مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ولا يستطيع الانسان أن يفعل غير هذا بحكم سنته الخاصة فهو حر بالضرورة .

فانضباط حركة الموجودات كافة بالسنن العامة وانفراد الانسان بسنة « الحرية » يؤديان إلى أنه في نطاق التأثير المتبادل بين الموجودات وحركتها التي لاتتوقف وتغيرها المستمر تكون حركة الانسان الحرة سابقة وقائدة لحركة ظروفه المادية التي تتحوك بدونه طبقا

والفهم وإدراك العلاقات بتكليف المعاني المجردة الموجودة في النفس مع المواقف الراهنة

معنى ذلك أن الذكاء هو الطاقة العقلية أو هو الصفة المرافقة للعقل الذي يعمل بنشاط وفهم وعمق وجودة أي أن الذكاء هو اسم وصفة في الان ذاته وهو المحدد الرئيسي في تلاثم بقية القوى لدى الانسان فالانسان وحدة من المادة والذكاء وبهذه الوحدة لايعيش الانسان وسط الطبيعة شأن الحيوان بل على هامشها فكيف ذلك؟

إن الذكاء من مميزات الانسان بأن جعله ذلك الكائن المدرك والادراك كما عرفه علماء النفس هو عملية الربط بين حدي الزمان الماضي والمستقبل - يقول جون وول « إن الموجود البشري لايجبي الماضي أو المستقبل فحسب وإنما يتحقق فعله في الآن » .

فالانسان لايكف عن بناء ذاته أو هدمها وهذه العملية مستمرة هي التي تسمح له بان يدرك نفسه بوصفه صاحب هذا الماضي المعين أو ذاك المستقبل المعين .

معنى ذلك أن الانسان ذلك « الكائن الزماني » كما اقر سارتر فهو يعيش الماضي المستقبل محاولا الربط بينهما بعملية الادراك. ولكن ليست عملية التذكر والادراك والتصور عملية فكرية مجردة بل إن التذكر

قبائل وشعوب وامم شتى كان كل انسان في أي مجتمع فانه لا يكف ولا يستطيع أن يكفه عن محاولة تحقيق حريته ولا يتسنى له ذلك الا باتساق حريته مع حرية الآخرين ولا يتم هذا الاتساق إلا بالتزام السنن العامة كشرط للسنن الخاصة .

وطبقا لها تكون حرية كل فرد في مجتمع ما متأثرة ومؤثرة متغيرة ومتحركة مع حرية الآخرين في المجتمع ذاته ويثبت أن كل حرية هي في تحقيقها حرية اجتماعية .

إذن بفعل تميز الانسان بسنن الحرية واتساقها مع حرية المجتمع تحقيقا لكيونته جعله الله مركزا للكون كاشفا لاساره مستثمرا لخيراته قال تعالى « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » (الملك 15) .

إن هذا السعي الدائم لاستثمار خيرات الطبيعة تحقيقا لحرية الانسان لم تترك سدى دون محددات بل جعل الله لها رحمة منه بعباده اهدافا ووسائل تضمن استمراريتها فاما الاهداف فهي تعمير الكون باستثمار خيراته ونشر قيم العدل والحرية والمساواة، وأما الوسائل فهي عقيدة كونية شاملة كانت حريا ضد كل أشكال الالهة المصطنعة ووجوه الاستبداد وأصول ومبادئ عامة فوق الزمان

لستها ولكنها لا تفنى ولا تتجدد وكذلك كان شأنها منذ أن وجدت قبل الانسان بملايين السنين وهبوطورها إلى ما يريد بقدر ما يفهم من سننها ويحسن استخدامها يخلق كل يوم جديد وكذلك يفعل منذ أن وجد .

والخلاصة أن الانسان كسائر الموجودات منضبط بسنن الوجود العامة ومتميز عن سائرهما بسنة الحرية بهذا الناموس وظف الانسان كل ما من حوله لصالحه ولا يستطيع ذلك إلا بقدر معرفة سنن الوجود وعلاقاتها فيسجد من فعلها فيه باللباس مثلا اتقاء البرودة والسكن وصنع الالة تحقيقا للوفرة في الانتاج ... وهذا ما يميزه عن الحيوان الذي يعيش وسط الطبيعة متأثرا سلبا بنواميسها فهي التي تحدد حركته ولنا في انقراض الدناصير المثال المتميز حيث كان سببه تغير المناخ اذ انها من ذوات الدم البارد فهي لا تستطيع العيش في المناطق الثلجية .

بهذه الخصائص استحق الانسان موقع الخلافة فاذا انطفأ المصباح الذي ينير الطريق انتكس على رأسه وأصبح يمشي على وجهه قال تعالى « اقمن يمشي مكبا على وجهه اهدى امن يمشي سويا على سراط مستقيم » (الملك 22) .

ان الانسان لم يوجد وحيدا ولا يعيش وحيدا خلق من الزوجين الذكر والانثى وتكاثر فكان

المصادر والمراجع :

لسان العرب . ابن منظور « دار التراث العربي »
فلسفتنا . محمد باقر الصدر « دار المعارف
للمطبوعات »

المناهج التربوية . د . توما جورج خوري
مشكلات فلسفية « الانسان » زكريا . ابراهيم
مشكلات فلسفية « مشكلة الحرية » زكريا . ابراهيم
عالم المعرفة . الانسان بين الجوهر والمظهر عدد 140
تأليف اريك فروم ، ترجمة سعد زهوان
عالم المعرفة . العلم من منظوره الجديد عدد 134
تأليف . روبرت . م . اغروس وجورج . ن . ستانيسير

ترجمة . كمال خلايلي

عالم المعرفة . الفلسفة المعاصرة في أوروبا

تأليف . ا . م . بوشنسكي

ترجمة . د . عزة قرني

* يرجى من الأئمة الفريشي المواصلة والإجابة على
السؤال الذي طرحه .

والمكان يتفاعل معها الانسان بعقله انطلاقا
من واقعه محررا من عوائق الذات والطبيعة
تحقيقا لحياة أفضل .

بهذه المحددات وإيماننا بالإنسان الكائن الحر
قدمت الحضارة الاسلامية أعلاما حملوا
مشاعل النور وسجلوا بمداده مجدا لا يبلى
وتوجوا التراث العربي الاسلامي بالرفعة
والمجد والخلود فيه من صنوف العلم والأدب
والفن ... أمثال ابن سينا وابن النفيس
والرازي والخوارزمي وابن رشد ... الذين بهروا
العلماء والباحثين والمفكرين في أوروبا .

يقول المستشرق عبد الكريم جرمانوس «

إن على المسلمين ان يفخروا بأنسلافهم
ويستمدوا من مواهبهم وعبا يقودهم إلى
مستقبل جديد »

فكيف السبيل إلى إحياء هذا التراث ؟

حوار وإبحار

مع رئيس اتحاد الكتاب التونسيين : الميداني بن صالح

حاوره : الشاعر محمد الهادي الوسلاتي

« الشيخوخة لا تعني الجمود »

الآن أتحصن بحديثي الحضراء

تونس : الإتحاف والأمل والطموح

*** تونس : الإتحاف**

« الإنهزام والإنحصار » آلة آدمية تتصارع مع الذات والحياة والمجتمع في تناقضاته .

من يحاور الميداني بن صالح لابد أن يتسلح بالصبر أولا والمعرفة ثانيا فهو كالبركان يشور في أية لحظة ، لكن كل هذا لا يعني أنه الغول ، بل نجده في أغلب الأوقات كالحمل الوديع .

الإتحاف دخلت مسجراته بأسئلة مغايرة فكان هذا الحوار :

*** الميداني بن صالح : الشاعر ، أستاذ التاريخ ، السياسي ، النقابي رئيس اتحاد الكتاب التونسيين ، كلماته مختلفة تسمياتها . هل هذه الألقاب مطابقة لمسمياتها الآن ؟**

« كأنك بسؤالك هذا أنتختر وتعنن عمري الذي هو الآن واحد وسبعون سنة (71) في لحظة زمنية وحيز مكاني ضيق لا يتسع أبدا للمراحل التاريخية التي عشتها مواجهة وتفاعلا وتناقضا مع الحياة والواقع منذ أن غادرت نقطة منذ سبتمبر 1946 وهذه الصورة

كان ولا يزال الميداني بن صالح الكائن متعذد المواهب ، هذا الكائن الذي أغرق المشهد السياسي والنقابي والثقافي بعدد الأسئلة .

كائن فسيفسا . محل اهتمام من طرف النقاد ووسائل الإعلام ، كائن موقف والموقف حياة والحياة عنده فاعل ومفعول به .

الميداني بن صالح استحال ظاهرة غريبة وعجيبة وهو الشاب في العقد السابع كثير الحركة ، يبحث عن الابتكار والتجديد وقد لا يتألم إن قلنا إن رصد حياته ودراسة تجربته صعبة وصعبة جدا . فعندما تجلس إليه تجد آلة تسجيل متفردة توحى بالإبهار ، تسرد التاريخ في توليفة متسلسلة الأحداث .

الميداني بن صالح آلة تسجيل آدمية تعيش العصر وبذاكرتها النقيضين

طلع النهار

والريح تعوي والقطار

والعاملون الكادحون

في ألف غار

مانتي فرك في النهار

خبز وزيتون وماء

والكلب ينبح والصغار

طول النهار

أين العشاء

« من المجموعة الشعرية »

الليل والطريق

إنّ الإنتماء الإنحيازي للفئة التي تصنع

الحياة وتبني الحضارة سوف لن تنطفئ جذوته

في فاتي حتى أوارى القبر لكن أشعاري تظلّ

حذاء لسيرة العدل والحرية والمساواة . من هنا

أقول إنّ الميداني بن صالح هو الميداني ركن

الميداني اليوم ليس الميداني الأمس .

* الميداني بن صالح : من التشاؤم المفرط

إلى التفاؤل المادح ما هي أهمّ ملامح هذا

التحول ؟

. قبل الإجابة على هذا السؤال أودّ

التمهيد بما يلي :

يمكن لأيّ شعب أو أيّة مجموعة شعرية أن

تغيّر واقعها المادي الظاهري في أقلّ من عقد

إذا توفّرت لها الإمكانيات المادية فتصبح

الأكوخ مقاصير (فيلات) وتجمعات البيوت

القصدية ناطحات سحاب والخيام سيارات

المتنوعة لمكونات الميداني بن صالح لا تدخل

أبدا في الألقاب فالشعر موهبة ومشاعر

وأحاسيس وأشواق وتطلعا وحيا أزليا للقيم

الإنسانية الكونية أما التاريخ فهو شهادة

علمية جامعة لكنها لا تدلّ أبدا على أن من

يحملها قادر حقا على الحس بحركة التاريخ

التي تشمّ ولا تحكّ ومن طبيعة التاريخ أن

يفاجئ كلّ الغافلين ومن يغمضون أعينهم

حتى لا تكشف أو تحترق بنور الحقيقة

المقدسة . أما مسيرتي السياسية فهي شبيهة

بمسيرة العديد من الأجيال التي عاشت معي

فهي مسيرة الحلم والخيال والمرارة ونشوة

الانتصار والهزائم والإنكاسارات والتدني وقد

حاولت مراجعة هذه المسيرة والعودة إلى ذاتي

والتحصن بحديقتي الخضراء تونس الخصب

والأمل والطموح الذي لا يحد وأستشفّ من

خلال نظرات الأطفال والشباب كما أستشفّه أو

أشمّه من عرق العمّال الذين يبنون مجد تونس

حاضرا ومستقبلا من أجل مجتمع معاصر

تحديثي ومتطور تسوده الحرية والديمقراطية

ومبادئ حقوق الإنسان وقيم العقلنة والتسامح

والحب والتضامن دون تمييز أو أفضلية إذ

الدين لله والوطن للجميع .

أما مسيرتي النقابية التي اكتنزت نسغها

في ذاتي من أهازيج القبالة وتهليلات الحماسة

بالجريرد وآلام وأحزان عمّال المناجم سنوات

1953 . 1954 . 1955 بمنجم المظيلة .

للعشائرية الآلة .

إذن بسبب هذا الفشل الذي أدركته ولمسته واحترقت بشواضه وهذه مرحلة التشاؤم حسب تقدير لي لذلك رجعت لذاتي ولوطني تونس الحبيبة وأرفع صوتي عاليا لأقول إن عهد التغيير قد أمكنني بشحة بعثت بنفسي نفسا من التفاؤل من خلال مانص عليه بيان السابع من نوفمبر 1987 والميثاق الوطني وما تحقق لتونس رغم شحنة الموارد ومحدودية الإمكانيات من منجزات في مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والإجتماعية والثقافية ، لكن هذه المنجزات لا يمكنني أبدا أن أقول إنها بمستوى مانطمح إليه ، لكن بناء المجتمعات الحديثة المعاصرة ديمقراطية وتعددية سياسية واحتراما لمبادئ حقوق الإنسان وتركيزا لقيم العقلنة والتسامح والتضامن يتطلب النضال المستمر والعمل الواقعي لدفع هذا الواقع نحو آفاق التقدم والتطور ، إذ الحياة حركة مستمرة وترفض أية سكونية إذ قلت في « أوبرات » : تونس الإشعاع على درب التغيير

إنما التغيير

إحساس وإدراك ووعي

بخطى التاريخ حبل

بلفظ التاريخ

من حاد عن الأنساق يوما

وتعامى وتسامى وتعت

مكيفة تشتمل على أحدث التقنيات في مجال الإتصال أو يخوتا للنزعة مع شاشات التلفزيونات كما تتغير أكاداس الصوف والتمر وقرب السنن إلى مغازات تشتمل على أحدث الثقليعات ، ملابس وآلات ومجوهرات تخضع لعقلية الإستهلاك والتنميط ولاشيشية الإنسان .

أما أن تغير الإنسان مشاعر وأحاسيس ووعي ونظرة للحياة والتخلص من العقلية الفردية والبنيات العشائرية القبلية وغط الدولة ومشروعية حكمها ، أي علاقتها بالأفراد والمجتمع طبقا لما نصت عليه نظريات العقد الإجتماعي في مشروعية السلطة إنطلاقا من الفيلسوفين الإنكليزيين « هوبز » و « جان لوك » ثم الفيلسوف الفرنسي « جان جاك روسو » الذي توج هذا التوجه لمشروعية الدولة وصلاحياتها وسلطتها من خلال كتابه العقد الإجتماعي . حرية وديمقراطية ومساواة ويلوغ هذه المرحلة يتطلب فكرا ووعيا ونضالا حضاريا ونتيجة فشلي الإيديولوجي بخيبة كل المشاريع القومية العربية منذ أن تأسست الجمعية السورية بدمشق في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر (1845) . فالثورة العربية (1916) فظهور الأحزاب التي رفعت شعار القومية لتوحيد الأمة وكانت مع الأسف في بنياتها عرضة سياط القطرية الضيقة والمذهبية الطائفية المرفوضة وحتى

إرادة الشعوب

ه : الفشل في بحث جدلية توافق بين الوطني والقومي والإنساني

و : لا أدريّة أو لا شبيئية من يطلق عليهم مشقّفون عربا في طرح الإشكاليات الحقيقية وتفكيك الواقع ونقده للاستفادة من إيجابياته والتخلّص من سلبياته

ز : ثنائية السلطة في بعض المناطق بين طائفية دينية وأسرية عشائرية ومدنية من جانب ودينية سلفية من جانب آخر تكفّر الفكر وتفصل بين الأرواح وتحرق الكتب التراثية وتحطم الآلات الموسيقية وتكفّر بسبب أغنية الشاعر والملحن والمغني .

* حدث تطوّر هائل في مواقف المحاد الكتاب العرب من خلال برمجة المؤتمر القادم (جانفي 2001) بالعراق المحاصر ، مخالفة هذا القرار ؟

. لقد أدرك العالم كلّه والمثقفون الشرفاء والأحرار أن حصار العراق يمثّل أكبر مظلمة وجريمة إنسانية ترتكب تجاه شعب يموت أطفاله جوعا ومرضا ولا يجد مبدعه ، فنانو القلم والقرطاس والكتاب وهذه المحاصرة تدخل ضمن موجة حقد لا على العراق فحسب بل على العرب والإنسانية جمعاء ، طبقا لمخطط إسرائيلي أمريكي تبذرت خيوطه وانكشفت فخاخه وتعرّت أمام العالم أجمع وموقف فرنسا والصين وروسيا أكبر دليل على ذلك فإذا كان

وأرى أن الدفع بعجلة التاريخ نحو التقدم والإزدهار يتحمّل من ينتسبون إلى الإبداع والفن والثقافة والفكر مسؤولية وطنية تاريخية كبيرة .

* الميداني بن صالح ساهم وساهم في الجدل الفكري الداخلي والخارجي من خلال الوسائل المتاحة ، ماهي رأيكم أهم الأسباب التي أعاقت تقدّم الشعوب العربية ؟

. إن مساهماتي في الجدل الفكري والسياسي محدودة ومحدودة جدا كما أن الجدل الذي يقال عنه فكريا تجاوزا كثيرا ما يكون على هامش الفكر الصحيح ، أما أهم الأسباب التي أعاقت الشعوب العربية فأرى من بينها .

فشل ما أطلق عليه تجاوزا النهضة العربية ، إذ كانت انتقائية تلفيقية لم تتمكن مخافة أو عدم وعي من طرح الإشكاليات الحقيقية التي يعاني منها العرب من ذلك :

أ . مفهوم الدولة ومشروعية السلطة
ب . تحرر المرأة ومساواتها بالرجل ودورها في العملية الحضارية الشمولية .

ج . المفهوم الخاطئ للتنمية التي اتخذت شكلا مظاهريا ماديا لا يلامس عقل الإنسان وعيا وتفكيراً ونظرة للحياة ، إذ التنمية شمولية أو لا كلون في بنيتها السياسية والإقتصادية والاجتماعية

د : غياب الأنظمة الديمقراطية التي تحترم حقّ

على حلقات الذكر وفضاءات المتصوفة (القادرية بمدينة نفطة) كما تلقت دروس اللغة والفقه وأصول الدين والتفسير على جلة من شيوخ نفطة المعروفين بالعلم والصلاح ومجرد ما دخلت تونس للدراسة ساهمت في تأسيس صوت الطالب الزيتوني سنة 1948 لتعصير وتحديث التعليم بالزيتونة .

حفظت المتنبى وقرأت أصل الأنواع كاملا « لداروين » درست الماركسية بعمق وتطوّعت وتتبع الحركة الوطنية بتونس منذ ثورة علي بن غداهم سنة 1864 حتى الجلاء سنة 1964 تخيلت ، حلمت ، طوّعت لكنني استيقظت على حقيقة مرّة جعلتني كما قلت أرجع لنفسي إذ قال « سقراط » (إعرف نفسك) وجاء في القرآن الكريم (... وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فمعضلة الإنسان تتمثل أن يحاسب نفسه ويراجع أفكاره كلّ ذلك طموحا في درجة أعلى من السلم أملا في الحلّ أو الإنحلال أو الإدماج مع الذات العليا فالخلاص يقول :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

نحن روحان سكنا جسدا

فاذا أبصرته أبصرتي

وإذا أبصرته أبصرتنا

* أستاذ الميداني هل يمكن الحديث عن المؤتمر القادم لإتحاد الكتاب التونسيين وما

سيغزوه من توجهات في المرحلة المقبلة ؟

.. بالرغم من أن المدة الزمنية التي تفصلنا

هؤلاء ينادون برفع الحصار الجرمية على الشعب العراقي فمن باب الواجب أن يرفع المثقفون العرب أصواتهم لإستنكار هذا الحصار والدعوة إلى كسره عربيا في البدء وقد كانت فرصة انعقاد المكتب الدائم للإتحاد العام للكتاب والأدباء العرب والمتكوّن من اتحادات الكتاب والروابط العربية الفضاء الثقافي الذي عبّر فيه هؤلاء المثقفون على كسر الحصار الثقافي باختيار بغداد لعقد المؤتمر الحادي والعشرين مع إقامة معرض للكتاب تساهم فيه كلّ الإتحادات والروابط وتهدي هذه الكتب للإخوة المبدعين والمثقفين بالعراق الشقيق الذين حرموا لمدة عشر سنين من القلم والقرطاس والكتاب .

* هيمنة الميداني بن صالح على المشهد الثقافي وعلى اتحاد الكتاب التونسيين خاصة بفكره البعض بشقا فتك البعثية ، هل هذا يحتاج للتعقيب ؟

.. هناك فرق بين الهيمنة والتواجد والحضور إذ أكون يوميا بمقرّ الإتحاد عموما من الساعة التاسعة صباحا ومنذ سنين لم أتغيّب ولو يوما واحدا خلال أيام السنة إلا إذا كنت خارج مدينة تونس لإتمام مهمة أو القيام بمسؤولية تهمّ الإتحاد وطنيا وعربيا . أمّا تكويني فأنه لم يكن بعثيا فحسب فأنا حفظت القرآن وعمرى لم يتجاوز التاسعة وأتممت دراستي الابتدائية الفرنسية العربية بنقطة وتردّدت

بقرّ أعين الإخوة الأعضاء لكن الأمل والتفاؤل يجعلنا نردد مؤمنين انه إذا ما التف المبدعون والمثقفون حول منظمتهم وساهموا لدفعها نحو الأفضل : تضحية وتطوعاً وطرح تصوّرات مستقبلية وتقداً بناءً بعيداً عن عقلية الهدم والتخريب والتطاول والغرور والإنتفاخ فإنّ الاتحاد ونحن نقرع بوابات القرن الحادي والعشرين سيشهد مستقبلاً تطوراً فاعلاً في حياتنا الوطنية وحضوراً متميزاً ومساهمات في حلّ عديد القضايا التي تزعج وتقلق الأخوة المبدعين والمثقفين من ذلك ودون حصر واقع النشر وانسداد مسالكه وغياب توزيع الكتاب التونسي ، خاصّة كتاب الإبداع لا على الساحة المغاربية والعربية بل المؤسف على الساحة الوطنية . لذا فنحن نأمل ونطمح وهذا طموح شرعي أن نكّن الاتحاد من امكانيات مادية هامة تسمح له باحتضان انتاج أعضائه الذي تتوفر فيه شروط الإبداع والمحتوى الفكري لنشره تحت سلسلة : (منشورات الاتحاد أسوة بما هو موجود في عديد الاتحادات مثل اتحاد الكتاب المصري والسوري والإمارتي والمغربي) ولنا ثقة أن الهيئة المديرة القادمة ستتمكن من تحقيق هذا الطموح المشروع خاصّة وأن رائد ثقافة التّعبير سيادة الرئيس زين العابدين بن علي بقراره الثوري المتمثّل في مضاعفة ميزانية وزارة الثقافة سنة 2004 قد فتح الفضاء ووفّر الأسباب لتحقيق هذا الأمل

وبأعضائه ومن أجل أعضائه وبالرغم من أن الهيئة المديرة لا يمكنها أبداً أن تدعي أنها لبت كلّ طموح أعضاء الاتحاد وحاجياتهم إذ طموحات الإنسان لا تحدّ كما يقال خاصّة في فئة المبدعين والفنانين والمثقفين ورجال الفكر عموماً ورغم هذا وغيره فإنّ الهيئة المديرة الحالية قد حاولت وبجهد مضن أن تقف بجانب الإخوة الأعضاء من ذلك ودون منّة لأنّه واجب فقد قامت بكامل التواضع بما يلي :

1 . قامت بمساعدة بعض الإخوة الأعضاء في ظروف إجتماعية خاصّة

2 . إقتناء عشر (10) نسخ من كلّ كتاب يصدر لأعضائه ويعمل الاتحاد على توزيعه

والتعريف به في نطاق التعاون الثقافي بين وبين الاتحادات والروابط العربية الماثلة .

3 . كما يمدّ الإتحاد نسخاً من كتب الأعضاء إلى مراكز البحث والدراسات والمعاهد الثانوية والمهرجانات الوطنية مع مجلة المسار كهدايا من الإتحاد لمزيد التعريف بأبداعنا التونسي وثقافتنا الوطنية لدى الشباب والطلبة والتلاميذ ببلادنا .

4 . تدخّل الإتحاد في كثير من الحالات ولدى عديد المصالح والوزارات في اشكاليات التي يتعرّض لها أعضاؤه خاصّة رجال التعليم منهم .

ورغم هذا وغيره فإنّ الهيئة المديرة الحالية لا يمكنها أبداً أن تدعي أنها قامت بما

في ذاكرة الميداني ؟

. سئلت نفس السؤال أو سؤالاً شبيهاً له

فأجبت ببيت أبي الطيب المتنبي الذي قال

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شبيبي مرجع القلب باكياً

أنا أدعي وكما يقال (عفانا الله من

كلمة أنا)

قلت أدعي انني وفي لماضي خيراً أم شراً ،

صالحاً أم فساداً ، سكيناً أم تعتمة ، إيماناً أم

كفراً فأنا لا يمكنني أبداً أن أنسى والدتي

صاحبة القرط أو والدي واخوتي القبالة

والخمساسة بالجريد وصمود وشموخ النخيل

بالواحاح وعبقريّة حنّبل وما قدمه

سجنون وعبد الرحمان بن خلدون وما قام به

شعبنا من تضحيات عن طريق نضالات محمد

علي الخامي واستشهاد البطل فرحات حشاد

وصمود ونضالات الحبيب بورقيبة وصالح بن

يوسف وما قدمه الطاهر الحداد والشابي

وخريف وغيرهم كثير ومن هنا فإنّ زيارتي إلى

بغداد ستذكرني وأنا أتذكر دون نسيان بأنني

في بلاد ما بين النهرين أرض الحضارات

الأصيلة السومارية والبابلية والآشورية وانني

في حضرة الخليفة هارون الرشيد ضمن مجلس

طرب وشعر وغناء ، بحضور النواصي وأنا في

أرض الجساحظ واصل ابن عطاء مؤسس

المدرسة الاعتزالية وأنني في بغداد الجواهري

والسياب والبياتي ، كما أتذكر أحداثاً

لرجال الإبداع واحتضنهم وبوأهم المنزلة

المزهلون لها في مسيرة التغيير ومشروعه

المستقبلي التحديتي النير .

* كثر الحديث عن الصرامة في تطبيق

النظام الأساسي للاتحاد وخاصة الثامن منه

والفصل الرابع من النظام الداخلي للاتحاد ،

هل من توضيح ؟

. قلت أن الهيئة المديرة الحالية تحاول

تأهيل الاتحاد منظمة الجميع وفصول النظام

الأساسي واضحة كلّ الوضوح ولا تحتل

التأويل ، إذن في تطبيقها لا تقبل أن توصف

لا بالصرامة ولا بالميوعة فأمّا أن يطبّق القانون

بكامال الشفافية وبذلك تكتسي المنظمة

مصادقيتها وحضورها وقبليها في قضاء

الجمعية كما تتحدد العلاقة الواضحة بين

الأعضاء والهيئة المديرة دون تأويل ،

كما أن هذا النظام الذي تسعى الهيئة المديرة

لتطبيقه هو نظام بهمّ كلّ الجمعيات الوطنية

التي هي ركيزة أساسية من ركائز المجتمع

المدني والمجتمع المدني لا يمكن أن نركز أسسه

ونستظلّ بفيثه ونهتدي بنوره وألقه إلا إذا

حافظنا على مقاييسه وقيمه انتماء وعلاقة

وسلوكا .

* عرف الأستاذ الميداني بن صالح بذاكرة

قويّة والذاكرة والتاريخ صنوان متكاملان ،

ستسافر قريباً إلى بغداد لحضور أشغال مؤتمر

اتحاد الكتاب العرب ، ماذا تبقى من بغداد

الصهيوني العربي أو بالأحرى تجاه عريدة وتنمر واستهتار اسرائيل بكل القيم ، هناك خطب وخطابات متناقضة أحيانا لا تجد لها طعما أو لونا أو رائحة .

عاشتها بغداد وعشتها معها صحة عديد الرفاق في العهد الملكي وعهد نور السعيد وعهد الثورة على يد عبد الكريم قاسم وما تلى هذه الثورة في صراعات ومذابح وأهوال ولن أنسى أبدا المكتسبات التي كنت أتردد عليها بحثا عن غذاء عقلي ، فكري والحانات التي كنت ألجأ إليها محاولا أن أتخلص من الهموم التي تكبل روحي وتثقل صدري كما قال الغرابي :

بزجاجتين قطعت عمري
وعليها عوكت أمري
فزجاجة ملئت بخمري
فبذي أدون حكمتي
وبذي أزيل هموم صدري

فسلام على بغداد التي بصمت الحضارة الإنسانية ببصمات لا يمكن لعريدة أمريكية وأنقليزيا وتآمر اسرائيل أن تطمسها أبدا .
*حين نقارب الخطاب السياسي العربي في أيعاده القومية مع معطى الصراع الصهيوني نجد مشاهدا الإختلاف والتنافر . كيف يرى الميداني بن صالح الخطاب الثقافي في هذا المجال ؟

أنا لا أعتقد أن هناك خطبا ثقافيا عربيا واضحا ومحددا وهادفا تجاه الصراع



حالات الإمتلاء والإنطفاء

في
(من الجرح إلى الجرح) لمحمد الهادي الوسلاتي

بقلم : محمد حيزي

إلى الجرح . لذلك سأحاول ليس ما ليس فيه ليس وأغرق في هذا الحفر الأسن لشاعر أدركه مريكا صاحبها لاسعة صدر له لا يحسن إلا الحسم حتى في موته وكل ما حوله لا يشبعه مصاب دائما بالعطاش والهزم الروحي الشائر كما لو أن وجهته كل الفوات وما يمكن أن يراه مهشما حتى بطووعه صلاصلا مرنا فينشئ حينها ما يعتمل فيه . قد تكون معرفة الذات الكاتبة مزلقاما وأنا أقتفي انفعالات الشاعر محمد الهادي الوسلاتي لكنني قد أروم مهربا شعريا قائما على المعنى والمهم المهمل المنسي في تلظي هذا الشاعر المهووس بالخراب والسؤال المضني ولعل ما تقدم يوحى بهذا كله أو بعضه .

التصدع أو أوهام الإنهيار وماتاهة السؤال :

(يمكن أن تتأتى نفحة التصدع من جرح أو من انصهار أيضا) « ترستان » (كان كثيرا ما بتشظى لذلك ينهمك في قضم ما تبقى فيه) « محمد حيزي » رواية مسافات الغبار حالة التصدع ظاهرة كما لو أنها أسس القصيدة

بدء المكاشفة :

(الإمتلاء يعني تحطيم الإرث : « ... ليس المزج بحاجة لورثة أو لأولاد . الفرح يريد ذاته ، يريد الأبدية وتكرار الأشياء ذاتها ، يريد أن تبقى جميع الأشياء متماثلة إلى الأبد » . نيتشه .

(مع ذلك ، لو تمكنت من التحكّم في الكتابة بشكل ما ، والتعبير عن هذا الموت ، لعادوت الحياة من جديد ولتمكنت من إنشاء صور طباقية وتحريز علامات تعجب ، ومن الغناء : « كم كانت السماء زرقاء ، وكم كان الأمل كبيرا ! »

انصرف الأمل منهزما ، نحو السماء السوداء إلخ) **- فلولان -**

تبدئي الصدمة من ظاهرها قبل باطنها وتشكل الملامح الأولى لهذا الصوت الشعري القادم من زحمة الهامش وفوضى القول راسما سعيها ما حافرا كل قلق البدايات وهم السؤال ناحتا فمه بعد أن كسر الكمامة أو توقعها فكانت مجموعته الشعرية الأولى « من الجرح

(قصيدة بغداد نافذة الحلم ص 42)

وهذا النَّسج الشعري يذبح الإيحاء الممكن
بما أنه حالة تصدّع لا تقوى على التّورية وإنّما
تجهّد نفسها حتى تدرك المصاب ومتاهة النّشيج
دواخل الشّاعر الرّاكض لهذه المذبحة وهذا
الحاصل المرير وإن كان السؤال مباشرا جدّا فهو
فاقد للغة أخرى حتّى ينفلت بما يريد إلى
ضبابية المعنى كما لو أنّه يسلم أنّ لا امكانيّة
أخرى حتّى أفيض بما يعتمل داخلي إلّا بهذا
الانفعال الحادّ ولو هوّمت بعيدا فلن أمضي إلى
جرحي فأراه .

تتراءى أوهام الإنهيار ومتاهة السؤال في
أكشر منقصيدة كما لو أنّ الشّاعر ينتهي بعد
كلّ التصدّع فيه إلى هذا المضيّ المشيع بالنّسب
أو الإنكسار الأبله في محاولة للتّواصل مع
الآتي وإن كان هو الماضي بكلّ بشاعته وقبحه
ففي قصيدة « طفولة » يوهّم ذلك الطّفل
البعيد بكلّ الفوح المنقّ وكلّ الأسئلة المهملّة
وسط حالة ترهل قصوى وانشطار إلى أكثر من
جرح :

يا طفلي

هرمت درويك

شاخ نهارك

ولينك باللفظي يتجمّد

أقرانك من عفن الحكاية ثبتوا وتدا

وأنت الغريب

قبل يوحها عند محمّد الهادي الوسلاتي
ويدونها لا يمكن أن تفكّك رؤاه وترغمه على
ملء هاجسه وتوجّسه وما يرهّب فهو في
تحفّيه يعرّى وفي عرائنه يفضّح ويمضي إلى
ما يريد وهذا بيّن في قصيدة « درس » ص 75:

جرير ... يا كبدي

أقرأ

قال : ما ...

قلت حاول

قال : يا أبت

ما فائدة أن أقرأ

لورك

نيرودا

المتنبّي وأمي

أرضعتني الصّمت

وفي ردّة تصدّعه لهول ما يرى يسخر في وجع
مكين لا يهرب للبكاء :

تطلّ علينا بيانات

الضّباب

بحبر التماسيح

حروفا

تماهت لرقص الثّعالب

بعد النّسب

بنس الزّمان

ماحاجة العراق لويل النساء

وسحر الخطب .

ألف لسان

ومن رعشة الحلاج أجنحه

لوعود بي زمني

ويظل أمره سؤالا .. يبرر وجوده الميّت في
مرحلة زمنية ميّنة لا تعنيه لأنّها لا أكثر من
رغبة فارغة من الفعل والضمّ وهنا يفضل العدم
وإن كان بأمل في عمقه مطّبا منكسرا بين أوبة
وتوقع وهو يرى أن الزمن حالة خصي وتردّ وفي
رفضه هذا يتجلّى همّه وموقفه من هذا كله
ووسط هذا المضغ الحادّ يتشكّل محمد الهادي
الوسلاتي الشّاعر المسكون بأكثر من قضية
محبطة وهو بذلك يعلن ويتنبأ بالزوال وبين
موته ويقانه يرسم ملامح ما بعد الضّيع .
أليس الشّاعر نبيّا ما بواري ويأفل ولحظة
توقع تسلفه بخوّل أخراب إلى حلم ولعله الفعل
حين نغيّبه ونهدر اعترافنا بنبوّته وتلك هي
مسافة قتلنا فيه ونجريدنا لحقّه كما لو أنّ
فسحة البقاء ضيّقة ولا تحتل مثله وهذا واقع
الشّاعر اليوم حين يحلم في ضيق ينبذه ويذبحه
ويسلبه مرقعه وهوفي هاجسه وتوجّسه يسهر
وإن صرخ إلى أقاصي الصّراخ . وهو أيضا
يعلن تهالك الشّعر ونبئ بنهايته وإن كان
يضرر انبعاثا آخر بعد كلّ الرّداة القائمة حين
يقول في قصيدة « قنمات خارج الوقت » ص
30 :

أيتها القصيدة

مع دورة الأخلاق على سفر تنفتّت

نما بين الفصول الذي نما

ونمت يا طفلي على أسئلة تنضّر

لكنّه في قصيدة « سأشتهي ما أريد »
ص 34 يخرج من انهياره إلى لهفة أخرى
كما أنّه يهدّم ما يعتلج فيه من بكائيّة صارخة
ليبني أخرى أكثر عونا لذاته المحبطة ليلفّ هنا
حالة تغنّ وتجنّ ولعله خارج عن كلّ أسئلته
الأخرى التي مضغ مرارتها إلى حدود اليأس
لذلك يقول بعض حلمه المستحيل محاولا ذبح
اللحظة التي تذيبه وتدمره :

لو يعود بي زمني

سأكتب حزن العنادل بالما . والطين

فوق السّماء

أفكّ قيود فرس أبي المتعب

أنثر الدف . في حلم مرآة أمّي

لتخرج سطور الحكايا المبعثرة

وأمشي جهة الغيم

أردّ الفراشات لكومة بياجة الدّار

..... (إلخ القصيدة)

وفي تهويمه حتّى ينال من السؤال تعجّ
قصيدته هذه بمثابة مركبة كما لو أنّه ينشئ
وشيجته من قطيعة مستحيلة بين ماض وواقع
متلصّسا ممكنا ما قد يدمر ما تراكم من جراح
فيه فيبني مرّة أخرى ما تبقى بداية ممتلئة :

وأخط من حكم المتنبّي

الضيق أوالنطفة الخاوية من خصبها وهذا
ماتنوبهقصيدة « خيانة » ص 16 وتشكل
صرخته / صدمته في انهيارفرحه
هوسداويةالأضداد وتفكك الشاعر بين ضريين
كجريدة تسلبان الشاعرسبيله ومقصده :

تجلى الفتى

على شفة الورقة

رسم

سما

أرضا

بحرايرته

كبرت وكبر حلم الفتى

وما أضيّق

الورقة

هذا التردّي في رحم السؤال هو القدر والسلب
للممكن ولعله العيب أين تتحلل الشوايت
وتسي بلا معنى غائبةفي حضورها حاضرة في
الغياب متسلطة بلا سبب قائمة على أكثر من
خطأ في محوها للذات هتك لامبرر له
واستئصال للفعل وهو في رفضه امتلاء يتلف
لبعث لا وصي فيه عليه كشاعر يرى خلقه بدء
ا للخلقة حتى يكون فاعلا لاضحية فالشاعر
هو حالة مخاض تنال ولا ينال منها والقصيدة
ميلاد عسيرجدا وليست نزوة بقدر ماهي محنة
تعاش عميقا وإن صرخ في النهاية بكونه
انسانا وليس حالة مفرغة تأتي أوامر الآخر

البسيط الطفولي وشرع له :

صورة

خذ يا جرير

أقلام الزينة ... قلت

وأرسم الخارطة

قال ياأبت

ما فائدة الرسم ومعلم التاريخ

بلا ذكراه

قلت : حاول

أمسك قلم الرصاص

ورسم

مقبره

تبدو الإدانة أشدّ حدة من الصدمة وهذا
التشكيك في المعطى يجتث الأصل الخائن أو
الكذبة القائمة لذلك تتشكل القصيدة مدوية
كما لو أنّ الذاكرة مسطرة محبوبكة من طرف
الآخر الذي يضيق على الشاعر كلّ ماضيه
البعيد ويدنس حقيقة مافات فالتاريخ مقاس
متغير كلّ يعيده كما يراه ويطمس بعضه
ويضيف إليه ويلمع إسقاطاته وهو يراه حالة
مقدسة وكلّ من يطالها يمحي هذه الذاكرة التي
يتمسك بها ويحوكها إلى مقبرة .

هذا الإمتلاء الأوّل يتحوك إلى دمار وخراب
روحي بشع فكما لو أنّه تشبّه به لا أكثر من
أمر عابر فالرج سرعان ما يذبح ولايعمر مطلقا
حتى أثناء لحظة الكتابة ولعلّ ذلك الحيز

أعنى ثم يلي ذلك نفق طويل)

. نيتشه .

ككلّ البدايات المشبعة بتفاصيل اللحظة والآتي يعلن الشاعر عن مقدمه وبشكل احتفالا شعرياً في سعي مريبك حتى يتمكن من مشروعية ما وخصوصية زلقة وهو ينحت من خلال ذلك فيضاً يراه ملامحه الأولى ومحمد الهادي الوسلاتي يبدّد شحته الانفعالية بدءاً حتى يغريك بعباءة ما منذ الوهلة المبيتة شعرياً في احتفال بمقدمك إلى كيانه وما يعتدل فيه من فرج مسند إلى لحظة الكتابة : إبحار

... هذي طقوسي

والزاحل إلى مدني

يقفل كل القوافي

ويقرأ موته على رماذ الصّحاري

وعندما أشتبهه

بستحيل

قرنفة في بستان أشعاري

هذه فرحة الشاعر أو إن شئنا ميلاده وبدئ

الحفر في هوية شعرية ما موحياً بما سيجي ،

وكلهفة طفل يورق محمد الهادي الوسلاتي

امتلاء ، وهو في حلّ من متاهة من سبقوه

مستشرفاً جمّاً من الأسئلة كما لوأنه يرى في

الشعر مهمة أعمق من صورة هادفة أو نسج

كلاميجميل أسر . فالشعر قبل رسم مكوّنه

الأخاذه هو السؤال وإن تجنّى ذلك الطلب

ألا تعرفين أنك تحنّطت كثيراً

بين الضلوع

وهذا الإحساس المرير بحالة الشلل والجمود التي أصابت الشعر وقوضته وما عاد قادراً على افتكاك عرشه وسط المتغيرات القائمة جرح أخريقتات الشاعر وينفي صوته المهذور في ساند القول وريح الكلام :

أرشق شتاتي بسهام السؤال

أفتش عن غدران حبر

تبيح السبب

هل يعني ذلك أنه يشرع للصمت وسط

موت القصيدة الأخرى وكلّ التضالات الممكنة

تضيع كما لو أن المعيش مسخ يقتل شعرية

الشاعر في متاهة التلف والدون ؟ إن لهفة

محمد الهادي الوسلاتي شبيهة بغرم دقيق

يرى من خلاله هذا الكون بعين المشدوه الضائع

في غربة حادة أنهكته عميقاً :

ألا تعرفين

أنتني ضيّعت الرّماق

ومن عشقوا لذة الذكريات

وكسر جراح السنين

لهفة الشاعر أو التشبّث ببعض الإمتلاء العابر

:

(ثمة انبهار وحماس وتقجيد وتصوّر جنوني

لنستقبل ممتلئ : تنهشني الرغبة والدافع بأن

أكون سعيداً أقول نعم لكلّ شيء وبشكل

عادية مزالت لحالة الاختلاف بينه وبين غيره لأن
همومه مبطنة بذاته الشاعرة وأي طمس لها
هتك آخر ينضاف إلى كل الشروخ فيه فالمتوقع
خائب والانتظار هذيان مهمل وتوجس مفرغ من
أي معنى وحالة استياء مفرقة منقصة :

عادة

مذ كان طفلا

تعود كل صباح

تحبه أمه

بكلمة

بعد الثلاثين تزوج

فأصبح يكتفي

بشرثرة الماء والصابون

وتحبة بقايا صورة

منتفخة

مرمية في قهوة الصباح

ويصل إلى حدود العيب كما لو أن الوجود

ريكة من العيب ولوثة هامش وانفراط دائم كردة

فعل هوسها عري فاضح ومتاهة مجهولة

المسعى وانشطار لا يلتئم :

نقطة

... في البد

علموه كيف يكون

الليل

وكيف يكون

النهار

الأمر الناهي :

دراما

... وأنت الذي

سموك

علموك

كيف ترد على الكبار السلام

كيف تركع للرغيف

كيف توزع الأقسام

وكيف وكيف وكيف تغني

فما ضر

لو علموك أن تصرخ مرة

مرة واحدة

أنا انسان

لهفتا لتوقع ومتاهة لا ينتظار في بعض

قوائد « من الجرح إلى الجرح » : <http://Archivebeta.Sakhril.com>

(ليس الكائن الذي أنتظر حقيقيا . إنه

كثدي الأم للرضيع » اخترعه وأعيد اختراعه

دون هوادة انطلاقا من قدرتي على العشق

ومن حاجتي إليه » يأتي الآخر إلى حيث

أنتظر وإلى حيث اخترعه . وإذا لم يأت

أهذي به : الانتظار هذيان)

.. فينكوت .

تتحرك القصيدة من العام الموجه إلى

الخاص الجراح وهنا تتبدى معاناة الشاعر

وما يروح تحته من هم لا مخرج منه فيضيق

عليه الخناق وفي شكواه هذه وإن كانت سائدة

علاقتنا بالذات . إنها فريدة العلاقة التي
يتوجّب علينا اقتحامها . تأتيني أغلبية الجراح
من القوالب ...)

- نبشته -

ككلّ جيل يسعى محمد الهادي الوسلاتي
ورحيم جماعي وغيرهم من الأصوات الشعرية
إلى تشكيل ملامح ما لهذه الفترة الممتدة من
أواخر الثمانينات وبداية التسعينات إلى
نهايتها ونحن على أبواب ألفية ثالثة مع نهاية
هذه السّنة وهذا الجيل الشعري الزّاهر بعدة
تجارب مختلفة يجهد نفسه حتّى يبلغ مرحلة
أخرى تقطع مع غيرها أو هكذا يتبدّى لها فعل
توصّلت إلى فرادتها وإن سعت إلى ذاتها
كتعبير عنهمومها وتراكمات التّغيّرات الحاصلة
حولها وحالة اليم والفقد لقضية ما أو نضال
بعينه وكلّ ما حولهم هوى وما عاد هناك إلّا
ذلك الموقف الأحادي أو ما يسمّى بالنّظام
العالمي الجديد وأمام هذا هل تكفي صرخات
الشّعراء هنا وهناك لتحديد هويّة ما وهذا التّرف
من يهتمّ له وماذا يمكن أن يؤسّس ؟ تبدو الذّات
هي الحالة الممكنة ويبدو الشّعور حالة غياب
مفرّعة تتهدّده إن لم تحصل رجّة ما تفضي إلى
مكاشفات أعشق وبدايات أخرى لصحوته
فيستمكن حينها من أويته وإن كانت الذّات
فضاء ما متمنّعا فإنّ البعض استطاع غزوها
ونال عمقها وجرب مطولاً حتّى تمكّن من نحت

لكنّهم لم يتركوا له

مجالاً

للإختيار

ليمضي أعمق من ذلك في تشظيه غارقاً
في هامش ذاته ومن يشبهه في قصيدة «
شمي المدينة» المهداة إلى شاعر آخر هو رحيم
جماعي وهنا تتبدّى معضلة أخرى وهي حالة
التّمائل التي قد تفضي إلى ذلك الهمّ الواحد
وبذلك الحوك القصيدة إلى تباين وتجربة مورّطة
في أخرى لتتوزّع الذّات الكاتبة عن أكثر
منشاعر وأمر هؤلاء على قلّتهم يفسّر ما
يسمّى بالتكتّل الشعري إذا تجاوزنا التكتّل
الجماعي كظاهرة شكّلت ملامحها عنوة في
المشهد الشعري عند هؤلاء الخارجين جنباً
وخصوصية ورؤية ما خلال أواخر الثّمانينات
والتّسعينات وهذا يتبدّى جلياً في القصيدة :

... أظنّك

تعرف أنّك مفرد

تماماً ... تماماً كجرحي

أو البعض من شبيهي

اللّهفة الشّعريّة أو تلك المحاولة للتفرد :

(إزاء فريدة الآخر البراقة لا أشعر أبداً أنّني
لا غطي بل مصفّ « كملفّ معروف » . أمكّن
أحياناً مع ذلك من تعليق الصّور اللّامتنسّابية
« ليتني أكون فريداً وقوياً كالآخر » إنّ المكان
الحقيقيّ للفردة ليس الآخر ولست أنا بل

سعي مضن مع تجليات قصيدة ثائرة في توقها إلى تأسيس قضية ما تتفرع وتتداخل لتتضارب وتشكل في أكثر من منحى وهذا يدفعه حتما إلى مزيد من الأسئلة الشعرية والقسوة على ذاته الكاتبة المتعطشة إلى فرادته كصوت شعري يمكن ويتناثر مع زحمة قوافل الشعراء التي تهدد شعرنا اليوم بالانقراض وإن هذبنا لقلنا الخرس والبكاء ولو كان الاستنساخ الشعري ممكناً لضينا فيه حتى نستعيد المتننى وغيره ليعيشوا معنا متغيرات اليوم وينالوا منها فنجد حينها متسعاً نلوذ به من هذا الضيق المطبق وكل الصخب العالق بأذيال الصمت مادام الصمت في أيامنا هذه أقصى ما يقوله الشعر وإن كان دونه ودون الدون .

الهوامش :

1 . نيتشه فردريش (1844 . 1900) : فيلسوف ألماني أخذ بمذهب التطور وقال إن الحياة ليست غير تنازع البقاء وبقاء الأصلح وإن الإنسان الأعلى هدف يجب الوصول إليه . كان من مؤسسي العرقية الجرمانية يتلخص مذهبه بما يدعى (إرادة القوة) . من كتبه « نشأة المأساة وروح الموسيقى » و« المسافر وظله » ...

2 . فرلان

3 . تريستان : « أيتها الشهوة في أعماق إغماق الأثير المباركة واللامتناهية في روحك السامية والشاسعة أنصنع وأنتهار دون وعي » (موت أرولد)

4 . محمد حيزي :رواية « مسافات الغبار » دار نقوش عربية

5 . نيتشه : (أنظر 1)

تجربة ما مشيرة للتناول والبحث فيها وإن كانت الرواية طيعة لهذا المسعى فإن الشعر يحتاج لأكثر من حالة تمرّد ومجازفة وكسر عميق لضيقه ورهيته وخوفه وبرودة ما يروم في أغلب التجارب القائمة فإن تكون شاعراً عليك أن تتجاوز ما يمكن قوله وتسعى بعد قتل الرهبة داخلك إلى ما هو أعسى ومسكوت عنه وهذا الحفر الدؤوب القاسي هو الهوية الممكنة لانبعاث مختلف عند هذا الجيل الشعري المتعطش إلى الفرادة التي ذكرت وهذه الفرادة عسيرة نيلها زلق متمنّع محفوف بهواجس عدة وتوجس محجف متبرّم مستعصّ مسكون بأسئلة خطيرة إجاباتها مهمة في ذات الشاعر الفارق في ماضيه وبوميّ عابريّ وسطيّ ساذج ومتردّد مقيت عند كثرة متبوعة الرؤى مؤرقة بحبيبة جفت ومفردات تغنى وبمسميات متداولة ولبيل مداره عشق مهزوز أو ظلمة قائمة براها فيه دون أن يبررها أو يسعى حتى لتناولها بشكل مخالف والأمر عبارة عن نزوة آنية مجردة من أبسط مقوماتها الممكنة .

ووسط هذا السعال الشعري وحالة الهزال المقرفة تخرج تجربة محمد الهادي الوسلاتي صاحبة بالذات والسؤال وتورطك في أكثر من مزلق وتنبيش شاعر خارج عن مضامين غيره المفرطة في القرف والتّواح البوميّ المجاني كلّهُ

الآية - الشعار

في الخطاب السياسي والبيان المنهجي



بقلم : محمد صفر

تصدير:

إذا الشعب يوما أراد الحياة

فلا بد أن يستجيب القدر

ومن لم يرد صعود الجبال

يعش أبد الدهر بين الحفر

أبو القاسم الشابي

(أغاني الحياة)

1- نعوّ تعديل النظرة إلى الإنسان وقدراته

لقد تنالت على العالم العربي الإسلامي موجات من المحن أفقدته وعيه وكل تميز لأي ملامح من ملامح النهوض ، حتى بات الانحطاط السمة الغالبة عليه .

في هذه الأوضاع الخالكة ، نشأ واشتدّ عود الفكر الجبري والفهم الخاطي للقضاء والقدر ، وكذا الوعي الزائف بقدرات الإنسان وفاعليته في التاريخ .

وقد سعى الخلفاء المستبدون - وكذا الاستعمار - إلى إدامة ذاك الشعور بين رعاياهم وإسكات كل صوت ينزع إلى التغيير والإصلاح - بالترغيب تارة وبالترهيب تارة

أخرى - وهو أمر من السهل استقصاؤه من سير

المصلحين في تاريخنا العربي الإسلامي ...

2- الشعار الأول :

الآية « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا

مَا بِأَنْفُسِهِمْ » (الرعد 11)

لقد اتخذت هذه الآية شعارا في خطاب

الزعيم الحبيب بورقيبة وبياناته المنهجية . وهي

بالفعل ، تعدّ أفضل شعار لما يجب أن يكون

عليه مجتمع الدولة الوليد - الخارج لتوّه من

ريقة الإستعمار - من إحساس بقدراته وفاعليته

ومسؤوليته في تقرير مصيره الحضاري بين

المجتمعات والدول . فالآية تهدف إلى بناء فرد

فاعل في مجتمعه ، متحفز للنهوض بأعباء

وطنه متى أحسّ بأنه مشحون بـ « القابلية

للتغيير » ومتى وعي أن هذا التغيير من

قبيل الممكن ولكنه والكشف عن ساعد الجدّ

... وهكذا ، فإنّ الانسان تقيع في داخله شحنة

« القابلية للتغيير » وإنّه متى قدحها انطبعت

بصماته على صفحات الحضارة الإنسانية .

إذا كانت الحتمية التي استنبطها ابنخلدون

الصدارة في سلم التقدم بفضل استيعابهما لفكرة « الحتمية التفاضلية » وتجسيهما لها على أرض الواقع وبفضل مراهنتهما على العنصر البشري .

كما أن هذه « الآية - الشعار » قد أعطت ما لله لله ، وما للإنسان للإنسان ، محملة هذا الأخير مسؤوليته التاريخية في الفعل الحضاري . وقد أحسن المجتمع التونسي - في فترة حكم الزعيم بورقيبة - استيعاب مضمون هذا الشعار واجتهد في تحقيقه حتى نجح في تركيز أسس دولة الاستقلال الفتية ونهضتها .

3. الشعار الثاني :

الآية : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (التوبة 105)

إن فكرة « الحتمية التفاضلية » لا يمكن أن تتحقق في غياب العمل والإبداع المتواصلين وخاصة في العصر الراهن ذي النسق الحضاري السريع المتغيرات .

فالعمل (5) هو الشرط الثاني من شروط النهضات والتقدم ، وهو الوجه التنفيذي لأي مشروع تغيير ، ولذلك ختم صانع التحرك الرئيس زين العابدين بن علي نص بيان السابع من نوفمبر بأية العمل (التوبة 105) متخذاً إيّاها شعاراً تنفيذياً لمشروعه التغيير . وقد عمل به سيادته - ولا يزال - كأحسن ما يكون العمل ، مراهنًا على الإنسان التونسي وقدراته

عن سقوط الدول نهائياً وبلا رجعة ونشوء غيرها على أنقاضها أمراً قسرياً ولا مناص منه . فإن الحتمية التي نستنبطها من مضمون هذه الآية (الرد 11) هي « حتمية تفاضلية » منفرجة تنتظر ذوي العزائم الصادقة لتحويل مسارها من الاتجاه السلبي المتشائم إلى الاتجاه الإيجابي المتفائل .

جاء في المأثور « إن السماء لا تقطر ذهبا » (1) .. إلى مثل هذا المعنى تشير الآية إذ أن التغيير الموضوعي (الاجتماعي - الحضاري) مرهون بتغيير ما بالأنفس ... وهي دعوة صريحة إلى نبذ عقلية التواكل والجمود ، كما هي دعة إلى السعي نحو العمل المثمر من أجل البناء والتشيد والتقدم .

فالتغيير الداخلي للإنسان هو الضامن ، إذن ، للرفق الحضاري والدرس الذي نتعلمه من خلال هذه « الآية - الشعار » أنه من الممكن - في حال السقوط والتخلف - الرجوع إلى المراتب الأمامية في سلم الحضارة والتقدم ، وذلك فقط متى توفر ذلك الشرط الذي قد يغيب لفترة - قد تطول أو تقصر - ولذلك رصفت هذه الحتمية بـ « التفاضلية » مصداقاً للآية الكريمة « ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون » (آل عمران 139) . ولنا في تاريخ العالم نشالي ألمانيا (3) واليابان (4) فقد استرجعتا مكانيهما في

« شعب علمه تاريخه الطويل أنه في الإمكان أحسن مما كان ، فتعلق بقيم الحداثة وفضائل العمل وأصر دائما على أن يكون غده أفضل من يومه »

3. قال سيادته في حديث لوكالة أنباء ألمانية في نوفمبر 1997 : « إن تونس تكن إعجابا كبيرا لألمانيا ، فجديّة ومهارات رجالها وجويّة مؤسستها مشهود بها من قبل الجميع مما يجلب لهذا البلد كل التقدير »

4. وجاء في كلمة سيادته في يوم 13 / 11 / 1997 بمناسبة مأدبة العشاء التي أقامها على شرفه رئيس جمهورية ألمانيا :

« إننا ننظر بإعجاب إلى الجهود الجبارة التي تبذلها ألمانيا (...) فهي تشكل في نظرنا إحدى التجارب الرائدة في مجال التأهيل والتنمية المتوازنة (...) وما تحقّق هذا الإنجاز العظيم بعسر على الشعب الألماني المعروف بجديته وقدرته على رفع التحديات وكسب الرهانات » .

4. جاء في حديث سيادته إلى صحيفة بابانية في جريدة 1997

« إن الشعب التونسي يكن إعجابا كبيرا للشعب الياباني الذي توفّق في ظرف بضعة عقود إلى إرتقاء ببلاده إلى الصف الأول للقوى الاقتصادية العالمية »

5. قال سيادته يوم (2 مارس 1997) في حثه على العمل والاجتهاد : « إن المجتمع مدعو اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى العمل على التعبئة الشاملة ونشر ثقافة العمل والاجتهاد »

« وفي أحدث خطابه ألقى سيادته (26 / 02 / 2000) في اختتام أشغال اللجنة المركزية للتجمع :

« (...) حتى يبقى حزينا حزب الجميع لا فرق بين مناضل ومناضلة إلا بالعمل والمثابر والإضافة والتميز » قال العمل هو أساس المفاضلة بين الجميع

« كما نلاحظ استهلال هذا الخطاب بجملة « نختم اليوم بروح البذل والعطاء أول دورة (...) واختتامه بأية العمل (التوبة 105)

6. ورد في خطاب سيادته يوم 2 مارس 1996 « يرتكز تصوّرنا للتأهيل الذي يتخذ من

(6) .. فكان الفوز بالرهان .

وإنه لما يثلج الصدر ، أن المجتمع التونسي

أمكن له . في فترة قياسية - إنجاح مشروع قائده وسياسة دولته - دولة التحول - حتى بتنا نطمح إلى تحقيق رهان جديد هو رهان الامتياز (7) وإنه بعد أن كنا - منذ عهد ليس ببعيد

- من أشد المنبهرين والمعجبين بالنموذج الياباني أو ما اصطلح عليه بـ « المعجزة اليابانية » (8) صرنا نمودجا لغيرنا (9) .

فسبحان من غيّر الأحوال !! ... لعمري إنه الانسان ... وصدق شاعر الحضراء وشاعر الحياة :

إذا الشعب يوما أراد الحياة

فلا بد أن يستجيب القدر

ومن لم يرم صعود الجبال

يعش أهد الدهر بين الحفر

الإحالات والهوامش :

1. قوله مأثورة عن الفاروق عمر بن الخطاب
2. إن فكرة « الحتمية التفاضلية » أو ما عبر عنها كذلك بشكرة المداولة في القرآن « هي من قناعات العهد الجديد الثابتة ، حيث جاء على لسان صانعه » لا سبيل إلى التقدّم (...) مالم تستمع إلى الشباب ومالم تغذ فيه روح الأمل والتفاضل ... » (تونس في 30 / 4 / 1997)

« وقال سيادته يوم 20 مارس 1997 : « إن تونس العهد الجديد ماضية إلى المستقبل بعزم وتفاضل »

« واصفا المجتمع اللتوني بأنه :

ما أشبه مسار التجربة التونسية الحالية وشعبها بمسار التجربة اليابانية

9 . جاء في حديث سيادته لوكالة أنباء ألمانية في نوفمبر 1996 :

« لقد قطعت تونس على مدى أربعين سنة من الاستقلال أشواطاً هامة في كل الميادين بالرغم من قلة الموارد الطبيعية . فقد حققت بلادنا بالاعتماد على امكانياتها الذاتية وعلى وعي شعبها إنجازات هي محل إعجاب الجميع وذلك في كافة المجالات . »

وجاء في الذكرى 41 للاستقلال وقوله :

« وإذا كانت تونس قد استردت بالتحول كامل سيادتها فإنها استردت كذلك بانجازات التغيير مكانتها في موازين الساحة الدولية »

أشاد عدد من أعضاء الكونغرس الأمريكي بنجاحات تونس وذلك بمناسبة الاحتفال بالذكرى 41 للاستقلال (حديثاً حديثاً) وفي هذا الاطار أوردت النشرة الرسمية للكونغرس تصريحاً صادراً عن السيناتور الجمهوري جانترا ابراهام مؤكداً فيه أن « تونس تمثل نموذجاً إلى البلدان النامية ... »

كما أوردت نفس النشرة تصريحاً آخر للنائب الديمقراطي نيكولاس رجال يعترف فيه أن : « تونس تعدّ من البلدان القلائل التي نجحت في الاستغناء تدريجياً عن المساعدة الأجنبية وفي الارتقاء إلى مرتبة البلدان المتقدمة » .

— هذه التصريحات لم تكن مجانية أو دعائية بل مستندة على الواقع الملموس الذي لا يستطيع انكاره حتى المتريعين على عرش الحضارة الراهنة وهذه لعمرى أبلغ حجة (انظر جريدة الشروق ص 3 . الصادرة بتاريخ 22 مارس 2000) .

العنصر البشري في معناه الواسع غاية جوهريّة ... » . وكذلك قوله في الذكرى 41 للاستقلال :

« إنّ رهان السابع من نوفمبر على نضج هذا الشعب رهان على قدرته على مغالبة الصعاب وكسب المعارك المصيرية ... »

أيضاً في 12 / 7 / 1997 :

« لقد راهنت تونس على عزيمته أبنائها وبناتها وإرادتهم وكفاءتهم »

7 . حول اختيار رهان الامتياز نورد هذه المقتطفات من خطابات سيادته :

* (...) وتونس التي اختارت لنفسها الطريق الصعبة وطريق الامتياز ... (تونس 30 / 04 / 1997)

* « إنّ يوم العلم مناسبة متميزة نستحضر فيها قيم البذل والاجتهاد ونحفز فيها الجهود من أجل التنمية والامتياز » (قرطاج 8 / 7 / 1997 في يوم العلم)

8 . إنّنا نتفق مع الدكتور محسن خضر في رأيه الذي أوردته في ص 127 من العدد 482 من مجلة العربي التونسية « إنّ أكبر جريمة ترتكبتها وتسميها بالمعجزة » لأنّ التعبير يعكس إحساس الشعور بالضعف واليأس من جانبنا وعدم رغبة في التنازل العلمي والموضوعي لما حدث . وفحص أسبابه وعوامله .

ثم يقول :

« ليس هناك معجزة ، ولكن تصور ورؤية للمستقبل من ناحية وقيادة تعطي المثل والقُدوة من ناحية أخرى ويتصميم لامتثال له »

ونحن نضيف :

أهزوجة للوطن

شعر : مختار المومني

[إلى أم الجميع .. تونس المحب]

تهل عليك البشائرُ

فيصفو الزمانُ

وتعلو الزغاريدُ

هنا يا بلادي

في كل شبر لنا مهرجان

ودنيا من الحب

والمعجزات

هنا جنة تشدو والنواير فيها

فتزهو الحقول

ويساقط اللوز

والتمر

والعطر

والنور

وينمو على ريوه القلب نجم

يشع على الكون أنسا

وأمننا

وليمتي للشجر

شعر: سعدية مفرح
الكويت

سادرا في عزمه أن يعرّش فوق
يباسي
خلتني رابة من بكاء :
كانت طيور الصيف قد فتحت نوافذ صبرها
نفضت حواصلها وتيقنت خيلاء حاجاتها
وقفت بأنفة جوعها البادي على سلك خريفي
يحدّ بحزنها عمرا ،
وبصبرها صبرا ، ويذبيها رقصا
وكنث أراقب رقصها مذبوحة ، فاجتاح خطواتي
وقال لفرحتي كوني
فكانت نخلة ترنو إلى نهر سماوي
تفجره يداه لكي يفيض على يديه ولا يفيض !
شجر منجرد
يشير إليّ بخضرتة الكامدة
يتاولني ريحها
« تكاد يدي تندي إذا ما مستها
وينبت في أطرافها
تكاد
تكاد ، ولكنه يبتعد !!

أولت للشجر الآتي مظاهرة
من انتظاري
ونفيظا من إجاباتي
أولت للشجر المدعو راتحة
من الكلام
ومن إغراء أوقاتي
وقلت للغيم أن يدنو
فكان دمي مؤازري
وتسامق الموعد مفتتنا في غابه
تنمو على أطراف بهجته
أضداد كلماتي
أولتني خضرة لسياق دهشته
فتباعدت في بأسها
سنواتي !!
شجر ينتمي لصحاري الفضاء
سموت إليه بحزن بقائي
فأورقني فتنة غادية
خلته واقفا في دمي
أخضر يحتمي بالمطر

في مقام الأسرار

شعر : مسعودة أبو بكر

حدثني يا رفيقي
بكلام لا يدور في مجالس السمر
عن عشق الطيور
ورقصة الصمت
في خطى الضياء .. لحظة السحر

لطيف مستتر
حدثني يا رفيقي
عن وطأة الأسرار
لعالم نتركه
ونحن مهما كبر فضولنا
نرحف عند العتبات
نجو ... كالصغار

حدثني يا رفيقي
قبل أن يغتال في صدورنا الكلام
وكفكف الثلج
عن أهداب قد أثقلها السهاد

حدثني قبل أن تطعن
في هدأتنا الأحلام
وينطفئ على الشفاء
ومض الإبتسام

حدثني عن صلاة الأعمدة
عن ضجة الأجراس
وذبذبات مقرئ
تهزها المآذن ...
عن رعشة الأضلاع ...
وسجدة الأنفاس

عن مراكب كانت قديما
ترقب الرياح للسفر
لتشهد عند الغروب
رقصة المحار ...
وزفة حورية الأعماق

عولة

شعر : سالم المساهلي

وماذا يفيد الوقوف
على عتبات الزمان
نصنع جبل التمني
كلما
نطرزه من خيوط الضباب ؟

وماذا سيعني العبور
إلى لحظة قادمة ..
إذا ظلت الخيل
ينكحها للصهيل الحنين ..
ولا كَرَّ يحملها
أو شهاب ؟

يحدث أن نعتني ..
بنجم يؤرقنا
بالوعد ..
فيمتد فينا الحنين جديدا
إلى كل نجم يشير ...
ويفتح بوابة للضياء

ويحدث أن ..
يهرب منا الأوان
ويرقص فينا السراب

أي الحداثات نحن
وأي القرون ..
إذا كان كل الوجود لدينا ،
بلا أروقة ..
وكان الزمان بلا ساعة
أو دليل ؟

نكاير أنا عشقنا ،
وأنا عبرتنا ..
وأنا - الدهور -
وقفنا ..
ولم يخضع النّضّ منا ..
برغم الغياب .

وماذا جنى العاشقون
على صبرهم
غير أن زلزلوا
وضاعت مراكبهم
ثم ضاعوا . ؟

دون جدوى ..
تناظر كل الذين مضوا ،
دون جدوى ..

نوء يغزل الآتي

شعر : أميرة الرويقي

وهذا النوء
عراجين نور تتدلّى من ثقب الريح
وذي الرّيح حمّالة
المدى
الرّيح

مراتيج السّموم لاسماعيل

مرة : <http://Archivebeta.Sakhyi.com>

تكديسي

يا عظام السّلسبيل فوق البياض
هذا قرع على خشب يطفو
كلّما اختلست الرّوح
قرقعة الأجساد تتهدّل من عوغاء
هي الأنفاس
نبات قديم يصطلي مضنّة
وهذا النّوء

مايفتئ

يغزل

الآتي

قصيدة لبلادي

شعر : منور عزيزي

يا بلادي ..
كلام العدى ..
منك لا ينتقص
أنت فوق كلام الحسود ..
وفوق فحيح الحجود ..
ومن يرتجبي ..
ضدّ أحلامنا ..
حالكات الفرص
يا بلادي ..
ولن يسرق الشمس منك ..
ولا البحر منك ..
ولا الحبّ منك ..
لثيم ولصّ

ثرثرة الكلمات

لصفائر الموت .. لغة الأطفال
الذين تعانقهم الأشجار ..
فصاروا عناقيد « تتدلى
تمسح الطرقات البعيدة
صاروا ورقا « يتكلم
بين الشظايا
ليستبيح الشرفات ..
ويسقط عاريا « قربي
الأرصفة .. ثرثرة صرخات
بقايا حجر ضال
لذا ...
أحرق الهفوات بجمرة الوقت
برفرقة الكلمات
فوق هياكل سوداء
تمتص اللذة
التي تدور عكس العقارب
لتحرق أمنية ضللها بنهار ..
متخثر ..

سارق الفرح
وعلى أساس ، دون أساس
ولدتك النخلة حرك
وبت مرا ...
تختزل في الجنائز
الزمن الآتي ...
وهذه الأقيار التي تنشر وحيها
في وجهك أنت
وتحرك للزمن الذي يبعثر
مسالك الدعاء ...
أرتشف نار الكتابة
أدعو نفسي للجلوس
على شعر أنثى
تغزل النار بكفها ...
أنوي دعوة الأشجار
للمرقص في أحشائي ...
أشكل ذاتي في صلب
المعاني ...

ضلوع آدم
 ما عادت لحواء مخرجا
 مثل هذا العصفور ...
 جناحان ...
 متى تحمل ضلوعك أروقة
 لحملت الأزرق ...
 التراب في التاريخ !!!
 إليك ...
 أنا ...
 من رائحة هذه الأرض المسرّجة
 في عينيك ...
 باللّهاث ...
 وهجر المكان ...
 لو .. كان لي ...
 مثل هذا العصفور ...
 جناحان ...
 من العرعار الواقف على جسدي ..
 لا احتطفت ...
 والضوء إمكانيّة للروح
 الفرح ...
 هذه امرأة السنايل تعجن الخبز
 من أحلام العذارى ...
 وأسكنته ...
 وتسقّمه قربانا
 وأسكنته ...
 لتساعدني حين ينهكه التعب ...
 ولما كنت فيك ، جئتك
 بالياسمين المفروش
 على القرى ...
 وأمرت صدري أن يلازمك
 جينما يفتح البحر في ظلّك
 أنفاسه ...
 أبدا ما كان ...

ليل .. وباغتني المطر

شعر : محبوب الطرابلسي

يقبهي الأمل	يبحث عن بائع التبغ
يجلس المحجوب	ذلك المحجوب مثلي ،
يرتشف الألم	في هذا الليل الحزين
كنت وحدي	يا أيها المحجوب
هاهنا	التحق
لا .. أصدقاء معي	كي نحترق ..
والشارع القفر يبكي	يأتي إلي في بظء
لصدي أغنية تأتي	يهمس لي : كم ؟
من مقهى الأمل البعيد	هات واحدة ، إثنين ، عشرة !.
أخذنا حلقة كعادتنا	دخنا سجائرنا
اشتعلنا وانشغلنا	وانتعشنا
جاءت القهوة مرة	فانكشفنا
كما في كل مرة	المطر ينزل
يانادل .. السكر	يهطل
ولاسكر في آخر هذا الليل	يسيل
والمطر ينزل ، ينزل	ولاشيء يفضح هذا الليل
امتعضنا ، ارتشفنا	سوى رؤيتنا لبعضنا
وامتد بصري	وحديثنا وأغنية المقهى

نقيق النّاجل	العائم في الظّلام
وموسيقى هدي	وأقباس سجانرنا
المطر	والموقد الكبير في الزاوية
والقلب يهرب .. يهرب	وخطوات أحدهم
نحو الشّمال البعيد	يضع في الطّريق
قلبي هناك	يفاجئني هذا المطر
وجسدي والقهوة المرّة	اننازل في آخر الليل
في هذا البلد	ويمضي قبل صباح الديك
* * *	تاركاً دمعه
ينطفئ الضّوء	يسقي الأرض والطّرق
والكلّ يهتف	في نشوة نشوتنا
أوقد سجانر الرّوح	بالتّبغ في آخر هذا الليل
يا أيّها المنير	المفعم بالهمسات
فألقب عامر	المثمل بأغنية المقهى
بالأغنيات الحزينة	المعتادة « القريب منك بعيد »
والليل يمضي	والشارع القفر يعوي
نحو نافورة	لاشيء يسكر سوى
في الشّمال البعيد	وقع قطرات الغيث
والسماء تنزف	على الطّريق
والأرض تبكي	ولا شيء يوقف
لقلب يفاجئه	حديث السّمر
المطر	سوى قصف هذا الرّعد
في آخر الليل العنيد	فلا تسمع غير

شروود الحمام وشوق القمر

شعر : الصَّحبي العلوي

طرب فوق رسوم الدخان
سجّل
إنّه أوّل التّكوين
وإطلق مرّة أخرى تعشّقه فارسان
وحدك
نوم السّجائر في ناظريك
** ** *

وحدك وقع السّنايك في حلمتيك
** ** *

فارس يرتدي حلّة من صفيح
يخاثل خوذته خطو السّؤال
متى تثقب فزاعة هذا الجسد ؟
وأنتى تنبت الشّمس في شفق جريح ؟
وحدك
حبو الجنين دما رثتيك
** ** *

فارس حطّ عنه القمر
يرواح عند انبلاج الجبل
بقصف العصافير طورا
وطورا بخنق المطر
وحدك
عشق النّطوع بها معصميك
** ** *

طرب فوق دخان الشّفاء
أوقد
إنّها النّفثة الأولى
ودم وشم هذي الجباه

قلم كلّ هذا الشّجر
حرم عمامة هذا الضّريح

قسم كل هذي الجبال
وفي السفر كتاب وقصب
إنها النار تطهر مسلك التاريخ
ودخان مليوني قمر
عشق يؤانس ليلك المرسوم في ظلال
الذهب

** ** *

خط الأمير على لوحتيك
أي خصر ترى أرسم ؟
وذا فستانك زهر
أي أسورة لك أهدي ؟
وأنت بلا زند دم
وذي أطرافك تعصر
** ** *

طرب صوت هذا البشير
طرب صوت هذا النعي
طرب كل هذا السفر
زغاريد في ليالي الجمر
أيتها البيضاء للوطن قدر
وحدك

كل قوس مله السهم
منذ القرون الغابرة
لم يبق
غير رنين الوتر
لم يبق
غير شرود الحمام وشوق القمر

بلاد ونجوم

بقلم : جمعة محمد جمعة
القاهرة

.. يأتي السياح ليشهدوا هذا المنظر. ألا
يستهيوك ؟
.. تستهويني غرابته ..
.. يظن هؤلاء البشر أنهم يتقون الماء من الفطر
الضار بالصحة ..
قللت في ضيق من جهلهم :
.. وهل يصدق أحد هذه الفرية ؟
.. أكاد أشك فيك ..
قالها وهو يرمقني بريبة ، ثم عقب :
.. أنسيت مفعول الإعلام الموجه ..
هزئت رأسي موافقا :
.. أعرفه خير المعرفة ..
أمسك بيدي ، قفزنا قفزة رائعة ، وجدتني
قرب بحيرة محدودة الإتساع ، تغطيها
مواسير ضخمة في صفوف طويلة وعرضية ،
تبدو في تناسق بديع ، يتساقط منها مياه
غامقة اللون ، سألته :
.. وما هذه ؟
.. مواسير صرف بقايا أجهزة الهضم ..
تداركت على الفور الأمر ، صرخت مرتعبا :
.. إنها تسمم الماء ..

هبط عليّ لا أدري كيف ؟ أو من أين ؟
اختطف القلم من يدي ، قصف سنه ، مزق
الأوراق ، بعثرها في الهواء ، وهو يسخر
قال :
.. أي جدوى فيما تفعل ؟ هيا أريك ما لا
يخطر على ذهن ..
بعد قليل تردد وافقته ، امتطيت ظهره ،
حلق بي فوق أطلس ، ننتقل من مكان إلى آخر
، فوق بقعة صغيرة توقفنا ، صاح :
.. هذه بلدة النجم الأوحده ، الحاكم القوي ،
ثم أشار إلى منبع نهر ، رأيت مصاطب
عرضية تعترض المجرى ، كثير من البشر
يصطفون فوقها ، بين أيديهم غرابيل ، يغربلون
الماء ..
حملقت في دهشة ، إهز رأسي في عجز عن
التفكير ، لمح حيرتي فقال :
.. النجم الأوحده بيده الحل والعقد ، يكاد
يكاد يقول للشيء كن فـ ..
واستغفر ربه قبل أن يضيف :
.. يكاد يعيده البشر ..
.. وماذا يفعل هؤلاء المجانين ؟

ثار البشر وحطموا المصاطب والمواسير ،
فضلوا شرب الماء بلوثاته الطبيعية ..

نفخ نفخة هائلة هزت الجدران ، تمايل
المصباح بقوة واصطدم بالسقف ، تحطم وساد
الظلام ، حملني لا أدري كيف وحلق بي ..
وقعنا على مكان جديد ، أرى أناسا يأكلون
النباتات ، أيا كان شكلها أو لونها أو طعمها
، المهم أن تكون ندية ، تعجبت متسائلا :

ليس كل نبات يؤكل ، كيف يعيش هؤلاء
الناس ؟

قال مبتسما :

ضاق الناس بالتجارة واتفاقياتها ،
واستغلال الوسطاء ، اهتم الحاكم ووليّه بزيادة
المساحات الخضراء ، انتشرت الحضرة في كل
مكان ، وقد نضب البترول والغاز ، ولم يعد
هناك وقود للطهي ..

علقت مبتسما :

أعتقد أن هذا الشعب يعاني كل
الأمراض ..

هذا ما فطن إليه الحاكم ووليّه ، اقتصر
مصانع الدواء على صنع دواء المهضومات فقط
.. قلت مستحسنا الفكرة :

فكرة مبتكرة فعلا ، أفهم من هذا أنهم لا
يأكلون اللحوم قط ..

هذا صحيح ، لذا ترى الحيوانات منتشرة ،
تحمي البلدة من مشكلة تزايد السكان ..

رد صرختي بصرخة أقوى :

إنهم يعطرونه يا غبي ..

ثم يعد أن هدا :

ليقل استهلاكه ، ولا تضطر الدولة لشراء
الماء ، أو الدخول في حرب مع جاراتها بسببه
، أليست أفكارا مبتكرة ؟

سقطت رأسي على صدري ، حملني على طرف
جناحه وهو يقول :

بيت الإعلام هنا أنه تقدم ، وأنهم اجتازوا
القرن الجديد بنجاح منقطع النظير ..

صحت في ثورة عارمة :

يا له من تقدم لعين ..

قهقهه ساخرا وهو يتبدد ويتباعد صوته
الضخم :

ماذا تقول لو رأيت دولة النجمين ؟
انتفض القلم في يدي ، انتفض بدني كله ،

ضربت بالقلم سطح المكتب ، انكسر إلى
نصفين ..

بعد غياب طويل فاجأني بالزيارة ، ثورة
عارمة :

قصفت لك القلم ، بماذا تكتب ؟

قلت ضاحكا :

بريشة أغمسها في الحبر ..

رد في جدية مغضبا :

يسببك انفض السياح عن دولة النجم الأوحده ،

- في استياء قلت :
 - أين حقلك يا سيدي ؟
 - حياة الغاب ..
 قال ساخرا وهو يتقدم :
 - وماذا تظن الحياة بعد نهاية التقدم ؟
 فكرت لحظات فيما قاله ، بحثت عنه فلم أجده ، قمت أغير اللعبة المعطوية ، حين ضغطت زر النور انفجرت ..
 * * *
 لا أدري كنهه أوهيته ، أقصف القلم ولا يأتي ، أمزق الأوراق لا يأتي ، أعيش في الظلام لا يأتي ، هو وحده يختار زمن المجيء ..
 فوجئت بالحجرة تهتز بي ، ظننت زلزالا ، لكنه خيب توقعي وهو يرفلعتني ويحوم بي ، قال :
 - هذه بلدة حكام ثلاثة ، ستعجبك ، الرئيس ومسؤول الأعداء في الداخل ، ومسؤول الأعداء في الخارج ، الجميع بعدهم تروس في الآلة الدائرة ..
 - آه ، بلد النجوم الثلاثة ..
 رأيت الناس كثيرين ، ساترون ، أدهشني أن الرؤوس كلها في اتجاه واحد ، إلى الأمام على الدوام ، همست في أذن أحدهم :
 - ما عمك ؟
 - أعمل في الحقل كما ترى ..
 تلفت باحثا عن الحقل ، سألته مندهشا :
 - أين حقلك يا سيدي ؟
 - أنا في طريقي إليه ..
 قلت بعد مسيرة عدة كيلومترات :
 - أحقلك هذا الذي عن يميني ؟
 - ليس حقلي ، حقلي أنا موجه إليه ..
 قلت لنا قلبي إلى البلدة :
 - أناس آليون فيما أرى ؟ ..
 قال مبتسما لأول مرة :
 - هؤلاء الآليون كانوا أعظم المفكرين ، أضناهم الفكرو أرقهم طويلا ، أقض مضاجعهم فتحركوا كما ترى .. وجدوا خلاصهم ..
 قلت مبتسما :
 - هذا شعب مريح جدا لحكامه ..
 - لهذا لا يوجد ما يعهده من وزراء ومدراء ..
 وعمداء وهام جرا .. فقط ثلاثة ..
 ثم عقب بعد فترة صمت :
 - أليس نظاما مريحا للبشرية جمعا ؟
 قلت :
 - أفكر قليلا ثم أجيبك ..
 استغرقت في التفكير ، تحول عقلي داخل رأسي إلى شوارع ، حارات ، دروب ، أزقة ، لم أصل لشيء ، صرخت :
 - لا أستطيع التفكير ..
 - كن مثلهم تسترح ..
 يبتعد سريعا ويتلاشى ، لم أجد القلم في يدي للأقصه ، ولا الأوراق لأمزقها ، لم أجد

لعبة مضاءة أو مطفأة ، لم أجد شيئا البتة .. بأنهم يصنعون الملابس ، سألت أحدهم مندهشا :

قال قبل أن يهوي بي : - تصنعون الملابس وأنتم عراة ، لماذا ؟

- اخلع كل ملابسك .. - نظرت اليه في ذهول :

« جاتها ثيلة » ... - وتنكشف عوراتي للناس ؟

سألته : - أفضل من أن يطاح بعنقك لأوك وهلة ..

- وماذا تشترون من البلاد المجاورة ؟ - تساءلت بعيني ، أردف قائلا :

- نشتري الأولاد حتى لا نفنى .. - أربعة فقط في هذه البلدة يرتدون الملابس ،

الرئيس ، مسؤول الأعداء في الداخل ، - تشترون الأولاد .. مسؤول الأعداء في الخارج ، ومروض الشعب

قال الرجل : - أما كل الناس فهم عراة ..

- لا تعجب يا سيدي ، حين تعرينا أصبنا - صحت مستنكرا :

بالقرى من نساتنا ، ابتعدنا عنهن ، ومع - أي بلدة هذه ؟

تناولنا الأطعمة المعقمة أصبنا بالعقم .. - هذه بلدة الموضة ، ظلوا يبتكرون في الأزياء

« غريب أمركم يا شعب .. - قال رفيقي ساخرا :

قال رفيقي ساخرا : - ألا ترى في هذا البلد الأمن والأمان ..

قلت متفكرا : - الموضة في هذا القرن هي العري الكامل ..

قلت ساخرا : - قلت متفكرا :

والنجوم اللأربعة أيضا .. - تصور ، هو فعلا كذلك ، لا سرقة ، لا رغبة

قال : - لا جشع ، لا حسد ، لا خطف ، لا اغتصاب

قال : - لا نهب ، لا إقلاق للنجوم الأربعة ..

قال وهو يتلاشى من أمامي : - فقط أمام الشعب ، أما في قصورهم فهم عراة

أيضا .. - موعدا في بلدة النجوم الخمسة ..

قلت أصيح : - كدت أصيح :

- كفى .. كفى .. - لكنه اختفى ..

خلعت كل ملابسني استجابة لطلبه ، ولأقف

على أحوال هؤلاء الناس ، أو ما يميزهم عن

بلاد أخرى زرتها غير العري الكامل ، فوجئت

- خسارة ، خسارة فادحة ألا ترى ما تتمناه ..
ثمّ وهو يشحذ همتي :
- سترى قلمك وأوراقك وأفكارك هناك ..
ثمّ وهو يهبط على عجل :
- ستعرف حالا ..

كدت أصعق وأنا أجدني أجلس إلى مكتبي
بيدي قلمي وأمامي أوراقي ، أذهلتنني المفاجأة
فصحت :

- من جاء بي هنا ؟

- أنت جئت بنفسك حينما أصابك عمى الألوان
، لم تعد ترى الأبيض أبيضاً ، ولا الأسود
أسوداً ، عندما اختزلت العالم كله في قرية
واحدة ، أول سمات القرية الواحدة التجانس ،
أنت قلت نحن في عصر ما بعد عصر العلم ،
قاطعتنا ميتتنا ..

- أنا لم أقل ، أنا أردت ما يقال ..

- أنت صادق في اعترافك لكن بعد فوات
الأوان .. أمامك أدواتك ، قل ما تريد فأنت
حر .. قلت في سخرية مريرة من نفسي ،
وأدواتي ، ومن العالم كله :
- حر .. كيف ؟ و « جاتها نيلة » إياها
فوقي وتحتي ، أمامي ورائي ، ليس لدي سوى
أن أهتف « تحيا جاتها نيلة .. تحيا جاتها
نيلة » ..

وأغلقت أطلس العالم وأنا أأسف لما يحدث
لي ، وللعالم معي ..

كلما هممت بوضع رأسي في نقطة التوازن ،
أفاجأ به يحيطني ، يحملني بعد أن جردني
من قلمي وأوراقي والضوء الذي يهديني في
ظلمتي وأيضاً ملاسني ، صحت فيه قائلاً :
- أرجوك ، كفى ما عانيت معك ..

لم يأبه وقال :

- وعدتك في المرة الفائتة بزيارة بلد النجوم
الخمسة ، سأريك هذه المرة سقف العالم ..
قلت لك كفى وأنت تتركني ..

- لم أسمع اعتراضك ..

حملني واخترقنا السحب ، عالياً ، قلت في
خوف :

- فيما هذا العلو الشاهق ؟
- حتى لا تقتلك رؤوس العمائر الشاهقة
الارتفاع ، المديبة كالخناجر والسيوف ..
خمنت وقلت :

- هذه البلدة رئيسة العالم .. هي بلد النجوم
كلها ..

- هذا صحيح لكن يبرز فيها خمسة نجوم هم
الرئيس العالمي ، وظله ، مسؤول الأمن العالمي
، مسؤول الفكر العالمي ، وأخيراً مسؤول
الأرض والسماء والفضاء ، وعلى فكرة ظل
الرئيس العالمي دائماً امرأة ..
قلت على الفور :

- عرفت هذه البلدة لاداعي لزيارتها ..

قال في استكانة :

سلحفاف في الشففر

بقلم : مفرك المنافف

« مفانا ثم لن فرفسنا لأن عمرته سثفمفنا منه . كذلك المفة المبالفة بفنه وفبنا لن سثفم له فرفسنا . ثم نحن ما ذكرناه بسوء ... طالت ففبته فاشثفنا فلفه ... هل ففبه أشد من ففنا له ؟ المنثفف لا ففكره أأد ... لفس لأأد أن فثثفه لأن قلبه مثل الفلفب وله الفضل على ففمف الزملاء ... كم ساعف وكم أنفف من زمفل ... من أعماقفل أقول رفم الله والففه .

قبل سثفر « المنثفف » سمع زملاؤه ففر ذهابه إلى العمرة فاسثغرفوا الأمر وهاجمه أقرب أصفقانه وأشدهم مزاحا معه فذ ففقه فوساق ثم صرخ فف ففبه أمام الزملاء :

« فف » المنثفف » ... هل فذهب مثلك إلى العمرة ؟

ففقه « المنثفف » بفوره ثم سالف :

« وما المانع ... ألا ففبفك شخصف ... هل

فبف منثرفا ؟

ففقب فوساق :

« الفجرة فذوب والعاهرة لا فثوب !

فانفجر « المنثفف » مفقهفا من فففد ثم صرخ :

فف ففباب « المنثفف » كان زمفلاه « فومقص » و « الزربوط » قابفف فف فلوله فمقر الشغل فأكلان لحمه :

« هل فصفق أن المنثفف » سافر إلى البقاع المقدسة من أجل العمرة ؟

« لا أعثفد ... لأفف سمعت أنه اضطر لذلك لمرافقة والففه وفالته .

« لاتفهم فذن العمرة حسب رأفك ؟

« أف عمرة فف مفغل .. سثرى فافا فففلفب من

ثلك البلاد . قبل سفره بأفام سمعته فثفأف عن « الثفبف المعسل » . ألم فلاحظ أن زملاء

كثفر فف أصبحوا حرفاء لففه ؟ ففأف أن مسكنه فآول إلى مفآفر فصار ففب بالفلف .

كانه فكان من فكاكفف نهف زرقون .

وفافأهما « فوساق » فف فلولهما فصرخ فف وففهما :

« فف كلاب ... فأكلون لحم « المنثفف » ... بالفرام عفا ففوف ففا سأففعفم له .. سفرفسكفا

رفسا ففقهفا معا ثم رف أأدهما :

« لو فففعنا له فلن فسلمك علفة » فبفف معسل

تنكيت في كل زمان ومكان . دائما يقهقه مبررا قهقهته بقوله « يجب أن تسخر من الحياة بدل أن تسخر منا » . لا يحسب حسابا للمشاكل ولا يخطط أبدا للمستقبل .

إلى جانب صاحبه المزاح له رقيقة عزيزة لا يستطيع التخلي عنها . ولا يستطيع كذلك العيش من غيرها . لأنه ربما عاهاها على ذلك . إنه يعشقها أكثر من عشقه للحياة ومدها واصفا : « حبيبي الصغرى ذات الجبة الخضراء » . يجلس إليها فيعانقها ويلثم فاها فيستنشق رائحتها ويمتص رحيقها فيتنفس الصعداء إذ يصعد إلى الجو يسبح في الخيال . عندما غاب صاحب النكتة عن زملائه مدة ثلاثة أسابيع لكأنه غاب عنهم سنة كاملة . فكأنوا يعلقون :

« كم هو مؤلم مشاهدة مكتبه شاغرا !
« بغياب » المنتفخ « غابت النكتة واختفى المزاح . ظللنا نعمل كأننا في مأتم !
« شخصية » المنتفخ « شخصية فذة لها وزنها الايجابي في نسيج المجتمع وخصوصا في مجال الشغل .
« غاب عنا فلم يعرضه أحد ليروح على أنفسنا حتى صديقه الحميم « بوساق » الذي كان يشاركه في المزاح أصبح حائرا كئيبا !
وارتفع صوت زميل جديد مستوحا :
« لماذا ألصقتم به هذه الكنية « المنتفخ » ؟

« أصابتك مصيبة يا مهراس ... أنت خالقي لتحاسبنني قهقهه الزملاء ثم عقبوا كل حسب تعبيرة :

« من تاب تاب الله عليه !

« إن الله غفور رحيم !

« ربي .. رحمته أوسع من ملكه !

وما إن اقترب موعد الرحلة إلى العمرة حتى قدم « المنتفخ » طلبا في عطلة لثلاثة أسابيع ثم سافر صحبة والدته وخالته . لكنه لبث حاضرا في قلوب زملائه لما يمتاز به من طبع محمود لصفاء سريره وحسن معاشرته .

كان كل همّه في الحياة المزاح . كان يبتكر الدعابة وله طرائف ونوادر عجيبة . وكما كان يرتجل النكات . وكما يحلّو له أن يشاكل الزملاء إلى حدّ إغضابهم مشييرا الجواب

الجنسية في أغلب تهجمات ولا يهدأ له بال إلا إذا نجح في إشعال نار الغضب في زميل له فتراه ينتشي إذا بلغ بصاحبه الغضب نفسه وشتمه . هناك تراه يهتز في قهقهة عالية ثم يهجم على خصمه في عناق وتقبيل .

رغم ذلك لا يكرهه أحد من زملائه لأنه كان أهلا لمحبتهم فعلاقته بالجميع كانت جيدة داخل الشغل وخارجه . يحترم كل زميل ويعطف على كل معوز ولا يبخل أبدا بتقديم أي مساعدة لمن يستحقها . عيبه الوحيد المزاح المتواصل . لا يستطيع العيش دون

المصلحة وليث هنية واقفا كعارض في أسلوبه
المرح ليتأملوا مظهره الجديد . بدا لهم في
جلباب فضفاض ناصع البياض وعلى رأسه
طاقية بيضاء . فأين هو من تلك السترة
الشبابية وذلك السروال الأزرق وذلك الحذاء
الرياضي ثم تقدم نحوهم فظهر في قدميه
خفان أبيضان فاستقبله الزملاء . مصطفى
وطفقا يحتضنونه تباعا يعانقونه ويقبلونه .
ثم تحلقوا به فاتسم الاجتماع بروح حميمية
راقية . حتى رئيس المصلحة ورؤساء المكاتب
هبوا إلى الحلقة فعانقوه وسلموا عليه .

ثم أخذ الجميع يسألونه عن البقاع المقدسة
فطلق بصفها لهم بالتفصيل والتدقيق لأنه
دقيق الملاحظة وحساس الذوق .

في الأيام الموالية عاد « المنتفخ » إلى مزاحه
المعتاد لكنه لم يعد إلى القارورة بعزيمة ثابتة
على هجرها وفي إيمان للحفاظ على عمرته .
وأضحى جل حديثه عن مناسك العمرة وعن
الحرمين الشريفين . لكن « بوساق » لم يطق
صبرا فتحرش به مشاكسا :

« هل أنت أهل للعمرة .. لولا الوالدة والحالة
هل كنت تفكر في الإعتمار؟ »

فقهقه « المنتفخ » ورد عليه بما يوافق مزاجه :

« إنني لأستغرب ملاحظاتك لأنك لست
إنسانا عاديا .. يا رأس اللحم .. طسة مخك

فانتفض « بوساق » من ذهوله وتولى الإجابة
عن السؤال الوجه المطروح :

« كان رفيقي في جمعية كرة القدم بالصف
الوطني . كان من أبرز اللاعبين على المستوى
الوطني وكان أسرع لاعبيننا فلقبناه الغزال .
كان يسجل من وسط الميدان . أغلب حراس
الرمى آنذاك قهرهم بهجوماته وأرعبهم
بقذفاته . وما إن انسحب من الرياضة وتقدم
في السن حتى جعل جسمه يتضخم إلى أن بلغ
القطار . وسبب عشقه للمزاح فقد لقبه أحدهم
بالقيل وكناه آخر بالمنتفخ فالتصقت به لأنه
قبلها بصدر رحب ولأنه المتسبب فيها بنفسه
لأنه كان يردد « الجمعة نفختني ... الجمعة
نفختني » . »

في صباح جديد التحق الموظفون
بمكاتبهم في الشغل . ولم يلبثوا إلا
قليلا حتى هتف « بوساق » يعلن في
صوت جهوري :

« هاهو « المنتفخ » مقبل ... « المنتفخ »
عاد ... « المنتفخ » عاد ... ثم دار دورة
حول نفسه في البهو في حركة راقصة وأعاد
الإعلان :

« يا سعدكم باهناكم ... « المنتفخ » جاكم ! »

فهرع الزملاء إلى البهو مرحبين مهللين
بينما ظهر « المنتفخ » قد ملأ بقامته مدخل

- يا مراد ... ما دمت قد قمت بعمره فأنك عاهدت الله بالاستقامة. فلماذا تعود إلى الحفرة؟

فقهقه « المنتفخ » ثم أوضح :

- اسمع يا حاج ... إنني أقدر وأحترمك ...
 - إنني لست متمعدا . بل الذنب ذنب الكليتين
 وكذلك ذنب طبيب الكلى . نصحني بالعودة
 إلى بنت الشعير ... يا أخي ... ماذا أصنع
 إذاً كليتي اللتين كادتتا تتوقفان عن الحركة .
 إنهما تعشقان السباحة في ماء الشعير .
 كليتي يا حاج تريد السباحة الدائمة مثل
 السلحفاة . مادمتم أطلقت علي اسم «
 المنتفخ » فأطلقوا على كليتي سلحفاة الجعة .
 آه يا أخي ... هكذا أريد كليتي (وطفق
 يحرك ذراعيه في حركة سباحة) دعها يا حاج
 دائما تسبح في المياه لكن سلحفاتي تعشق
 مياه الشعير . آه يا كليتي الحمراء اسبحي في
 المياه الصفراء ... اسبحي يا سلحفاة اسبحي
 مدى الحياة ... وارتوي حتى الممات ...
 وطفق يرقص ويغني :
 - عومي يا حوته ... يا عيون التوته ... والعب
 يا حنش .

لا تحمل مادة ذكاء . لعلها تحمل صوفاً أو
 مصبرات ... حتى شكل رأسك يمثل شكل
 رأس قرد ... من حسن حظك أن وضعتك
 أمك بشرا .

فقهقه « بوساق » وعقب :

- ألم تقل لي حين تجتمع حول الحبيبة الصفراء
 بأنني أتحوك إلى عبقري .
 - لن تفرح بذلك اليوم ... انتهى الأمر وداعا
 لتلك الأتشي فلن أعود إليها أبدا !

وفي صباح جديد آخر التحق الزملاء
 بمكتابهم في الشغل . ولم يمر عليهم ربع ساعة
 حتى فاجأهم « بوساق » بخبر جديد أعلنه
 وأصبح الاتهام موجه إلى مكتب « المنتفخ »
 - يا جماعة ... صاحبنا عاد إلى الحبيبة
 الصفراء ! مررت أمس بنهج الندما فلمحت
 « المنتفخ » بنفس مجلسه المعتاد قبل أن
 يسافر إلى الشرق . فقهقه « المنتفخ » ثم
 أعرب :

- اللي يخاف يخاف من ربي موش من العباد
 ... يا حيوان ... كأنك انتصرت باخبار
 الزملاء عني .
 فهمس الحاج العابد في أذن المنتفخ :

لبلاب

بقلم : علي الحربي
- العراق -

الأغصان ، واجمة خائفة ، تقبض بمنابيرها
على قم الصمت ، وترقب ماتبقى من مائدة
الأمس الصيفية .

هنا باتجاه نصف اليمين ، عند الكرسي
الثالث والذي صار الآن يرسم بضله خطأ يقصر
مع ارتفاع الشمس ، عند سطوعها الذي بدد
ما تبقى من تأمل السيدة « رويدة » فيه ليلة
أمس .. حينما سطعت دفقة ضوء ، على وجهه
.. ضوء بين معالمة لتستقر صورته في عينيها
، وهي تعين الضوء على إبراز نصف جبينه
الآخر ، حدقة عينه الساكنة ، خده الناتئ فوق
سواد لحية تؤطر الطمأنينة في إبتسامته الخفية
وتحاكي صمت السيدة حين توشك لحظات
حزنها أن تتبدد عند لغة أخرى .. لغة صارت
تألفها فتتأمل وحدتها فيه . في صورته التي
ما فتئت تترى فضاء ا مظلم .. لم يهمس
« أحبك » لكن في تدفق دمها إلى وجنتيها
خجلا يفضح بالحمرة ارتباكها أمام همسات غزل
لن تسمعها مالعادة منه ، بعد قليل فتغيب
عشقا بين يديه وترد بالتمنع محتضنة بنظراتها

مرّت أيادي الريح مرثجفة ولم تشر إلى
سكون سيرجع بعد حين ، راحت تمسدر رؤوس
الأشجار منغمة صوت حفيف أغصانها العالية
، وهي تميد عاليا .. تحف بأوراقها . حاضنة
صمت ثمارها التي تخبات محسرة عيون
خوفها في سماء الطائرة التي لم تزل تقاوم
ثقلها فتتسلق سلالم الهواء واحدا اثر آخر ،
لترتفع حيث تمتد المدينة تحتها كبساط يتصاغر
بفارق شوارعها الملتوية بين مستطيلات خضر
تحيط مكعبات تتضاء ل فتضيق معالم البيوت
والحدائق في نبضات قلوب الحائنين في آذانهم
إذ تردد صدى نداء المضيفات وهن يتأكدن من
ربطهم لأحزمة الأمان . بينما لا تزال عيونهم
تشبث بالأرض المدينة ، المسطحة . يرقبون
بعين الطائر أفقها العمودي ، حتى تبدو
لدهشتهم كتلة واحدة ، لا يستطيعون أن يميزوا
خلالها حتى ذلك البيت الذي عرف بكثافة
وعلو أشجاره التي لم تكن قد أثمرت
عصافيرا .

بل هو حشد عصافير إختبأت بين

إقترابه « متى يأتي » تنطفئ ويضيع الضوء ، ولا يبقى سوى ظلام يحو بقايا شفافية ظله عن الكرسي .

تتلقت « رويده » .. تدور في مشاهة حيرتها ، تبحث عن إجابة لمفاجأة سؤال إبهنتها الوحيدة : .. « سيأتي .. يأتي .. حين يصل غصنين شجرة البلاب الذي زرعه أول أمس ، حافة الشباك السفلى . » وتستدير ثانية لترقب فضاء مكانه .. تحاول أن تستعيد الصورة ثانية بينما تبقى البنت حيرى ، تبحث عن عدد أيام معلوم يساوي حركة الغصن الناشئ صعودا حتى شبك المطبخ . « ربما ثلاثة أيام ! سبعة .. لا أدري .. ربما خمسة أقدام ، ويأتي ؟؟ » الحيرة تلد حيرة فيعيا ذهن طفولتها .. تعود للكرسي الثالث لترقب

فضاء ملامحه فتزوغ صورته .. تكاد أن تنساه ، لكنها تواصل تفتيت بقايا الحيز . حبة فحبة ترميها عند الكرسي .. لاتذكر .. ترمي حبة أخرى في بحر مكانه فتتسع دوامات نسيانها وتتلاشى صورته ويبقى عزاؤها أن غدا ، أول الصبح وغير نافذة الغرفة العلوية ستقف لترقب فرحها بهبوط حشد العصفير التي استعادت طمانينتها بعد أن مرت الطائرة تاركة صوت هديرها خلفها .. تاركة المكان لمحدد من العراك والزقزقة ورفيف أجنحة ، تتقاطع عند الكرسي الثالث ، أجنحة ترسم بتخطفها خطوط تتوالى

، تزداد .. تتناوب قافزة من أغصان عليانها إلى الأرض ويسرعة .. إلا عصفورا واحدا سيقفز بعد تردد ، بين جوعه وثقل جناحيه ليصفع الهواء برفق مبتدئ .. يخفق مرتبكا .. يقترب من الكرسي الثالث ، يحاول أن يهبط ، تخذله جناحه فتدفعه أيادي الريح أبعد .. فيهوي لولا أنه يتشبث بغصين البلاب الذي يمد تحت ثقل أغصانه التي نمت ، فينحني حتى يلامس الأرض فينزلق الطائر ، يتدحرج بينما يعاود الغصين وقوفه ليوصل زحفه صعودا .. يتشبث بنتؤات الجدار ويدفع قلبه للأعلى ، برعما أخضرا يتلوى في فضائه ويختصر مسافة صعوده لبشير كاصبع إلى جلوس السيدة « رويده » وهي تتأمل ثانية الكرسي الثالث « هيه ؟ ، ها قد وصلت حتى الشباك .. وصلت قبل اعتقادك بأيام ! » .

لم تكن تسمع . وهي منهمة بأعداد الفطار . تضع إبريقي الحليب والشلي على النار ، وتعود لتحضير المائدة .. توشك أن تستدعي ابنتها ، لكنها ترجى ذلك حينما ترقب ظلال أول النهار وقد أيقظت في الكرسي الثالث وجه أول أمس .. وجه أكثر عتمة . فهو لايفصح عن هيئته لولا أنها تعرفه ، حين يسبل يديه على الطاولة ليعترف بذنب يؤرقه .. تتدلى على حبل كلماته .. تنساب إلى ذهنها بحثا ولو عن نظرة صفح ستمن بها عليه

و تفغان بمواجهة بعضهما ، بانتظار دفقة أخرى
 فتمتزجان بقوة . تدور كلاهما في الأخرى ..
 جسدان .. كيان واحد يتشكل دون انفصالهما
 ، فتدوران حول بعض في رقصة مسننات
 هلامية ثقيلة تتواشج فتبرق فيهما قبلتهما
 وترعد فرحا خائفا يتلاشى في شكل رمادي
 ثقيل ، يدور على نفسه سحابة كبيرة واحدة ،
 مثل يد كبيرى جاهدة أن تقبض على ذاتها من
 الخارج بالتفاف أصابعها التي أخذت تتشاقل ،
 تتلاشى ، تنحل . تنساب على كف الريح ،
 تهيم قطرة فقطرة فسيل مطر جارف يغمر
 المدينة بهطوله فيريك بغزارته حركة المارة ...
 يترامسون إلى المظلات والسقائف والمباني .
 وحدها رويضة تدور في حيرتها حينما
 لا تجد سوى ظل شجرة تحتتمي به قرب الرصيف
 . تقف مصغية لإيقاع ضجيج ، يلف المدينة
 عبر ارتفاع أصوات عجلات السيارات وقرعة
 الرعد وازدياد هطول المطر .. حتى أن أوراق
 الأشجار صارت تنحني وتقطر هي الأخرى ..
 عندما قررت أن تقطع المسافة المتبقية حتى
 مدخل البناية ركضا ، لم تكن تعرف بأن
 سقوط حقيبته وإنحنائه لالتقاطها سيسببان
 توقف المطر .. رفعت رأسها لتجد سماء
 سوداء قائمة ولم تكن سماء بل مظلة ويد تمتد
 إليها أن « خذي » .
 لما مسكت بالمقبض كانت تريد أن تقول :

لدقائق كي يتعذب كما هي الآن كي يشعر وهو
 وحيد ، كيف تمر لحظات الحزن الثقيلة .. كيف
 تتحول دقائق الساعة إلى صنج ارعن يدق
 حتى يقتلع الذهن ، يحيله إلى سكوت ميت إلا
 من صورة مشوشة للعالم ، صورة خراب أو
 خطأ كوني في تصوير الحياة من قلب رتابتها
 الفج ، من الالتقاء خيوطها التي تنحل ثم تدور
 لتحيك رداءا معتما اسمه الانتظار .
 واصل غصن البلاب تلويحه ، مبشرا
 بوصوله ، محاولا استفزاز غفلتها لتنبيه إليه ،
 غير أنها لم تكن سوى تأملها في الكرسي
 الثالث بينما يدور الغليان خلفها مباشرة
 ليحك مؤامرة صغيرة ترتفع مع ارتفاع غطاء
 ابريق الشاي نواة غيمة ، تكبر مثل مارد في
 فضاء المكان .. غيمة بيضاء تشنح سرا
 بالسواد وتدور حول مستقرها قلقة ، لتمسك
 جاهدة بأجزائها أمام يد الريح التي أخذت
 تشطرها نصفين متقابلين في فضاء واسع ،
 تقف فيه على أعتاب لقاء جديد تحيكه الريح
 من نسيج خفي .. تتمنعان . تبتعدان عن
 بعض ولكن دون جدوى .. هما سحابتان
 داكنتان مشدودتان إلى لقاء قسري لا بد منه ..
 كلاهما تشنح تدور على جبال ذاتها بانتظار
 فعل بطن يتحرك فيهما ...
 اباد هلامية تدور في دواليب جسديهما
 . تنفخ الريح . تقتربان للحظة . تتلامسان

و يدفع غضبها للإحتدام لما تقف أمامه بكلّ تحديها لتترك مكر ابتسامته فجأة فيقف مع فرشاته ، يرى ارتجاف مظلته في يدها ويتهاى لرد قاس محتمل .. يعرف أن ذلك ليس من حقه وأنها بدأت هجومها فانطلقت مثل سهم نحوه ، لكنها لاتعرف ، لما كانت المسافة بينهما تطول .. تكاد تهدأ .. حتى إذا ما وصلته فرفعت المظلة بوجهه

سقط غطاء ابريق الشاي خافها فنهضت لتطفئ النار في أقصى المطبخ وحيث لم تنتبه لتشعب ظلال الليلاب على الشباك مضيغا مزيدا من العتمة على المكان .

انه أول صباح نهار صيفي واصل فيه الليلاب تخرصاته المجنونة حتى غطى المكان مواصلا صيغوده باعتداد لأعلى ، غير آبه لصوت « رويده » تنادي انتهت التي نزلت تاركة عراك العصفير .

تطاول البرعم ليبدأ تشبثه بعارضة نافذة الغرفة العلوية وحيث كانت تقف ، صار كأصبع يشير إلى وصوله ، غير أنه لم يكن يرى في الغرفة ، سوى مظلة سوداء ، علقت قرب لوحة لإمرأة مستلقية كسلطانه ، محاطة بالعديد من الجوارى ... سلطانة تبتسم لاشارته وهو يواصل ارتفاعه حتى السطح ، برعم أخضر ، يشير إلى سما ، صافية الزرقة ، لولا هبوط طائرة كبيرة يرقب المسافرون فيها

« كلا شكرا » وترفضها . لكنه مر من غير مبال لغضبها لتباطى خطواتها خلفه وهي تحاول أن تتصور ابتسامته الظافرة التي طالما رأتها في محاولات اقترابه منها « لا بأس » فكرت أن تضع حدا لذلك كله . بضع خطوات وتوقف المطر مثلما ابتدأ .. مؤامرة .. لقد تواطأ مطر آذار معه . كان عليها أن تحمل مظلتها غير أنه صباح مشمس ، لم يكن ينبئ بهطول المطر !

في الباحة ، عيون التماثيل البيضاء المغتسلة ، ترى حيرتها .. حتى تمثال فينوس المقطوع الرأس والأطراف له عيون تبتسم ، تضحك لتردها ، ربما لتدافع خطواتها العصبية نحو المرسوم . هناك سجد حتما . يجلس متأملا فضاء انتصاره عليها . يستمع وقوفها عند الباب ، يحس زفير غضبها كدوامات بخار خلف جلوسه المعتد وهو يقتادها حتى المصيدة هنا تجدد نفسها تجلس أمامه كسلطانة من تاريخ قديم . تتكى على أطرف سفاتها بين حشد وصيفات ، يظفن في خدمتها ولا يرتجفن لحيانها ، لتوهج وجنتيها الخجلتين تحت مداعبة أنامله التي تحركت على شفتيها فاشتعلت وردتاها حمرة .. مرة واحدة تكتشف سر نظراته إليها فها هو يرسم صورتها ويواصل حركة ضففره على خطوط جسدها المستلقي في القدم . يستقر ، اهتمامها

إسم المولود

بقلم : محسن خضر
القاهرة

عطور نسائية متداخلة الأنواع تتخللها رائحة الكلورفورم النافذة .

قامت أم الزوج من مقعدها مترددة ويدت أخت الزوجة ضجرة وهي تحكم حركة طفلها ذي العيامين المستعد للانطلاق في المكان ، ودار صراع صامت بين القبضتين .

تأهبت جارة الزوجة للحديث ، بينما انشغل والد الزوج بتجفيف عرقه وهو يستلذ بمشاعر الجذ

للمرة الأولى

..هه ..اتفقتم ؟

سألت الممرضة في لهجة تجمع بين الابتسام والقلق

بادر خال المولود التلميذ بالابتدائي بتبديد دائرة الصمت .

..نسميها سامية .

نهره آخره الكبير الجامعي ، مقترحا :

..لم يبق إلا العيال. مارأيكم في اسم سها ؟

كان الإسم لزميلته بالكلية والتي يبادلها مشاعر جميلة .

حدجه الجد الذي كان مائلا على ابنته

نفذ صبر الممرضة وهي تسألهم للمرة الرابعة أو الخامسة:

..هل اتفقتم على إسم المولود ؟

ضاقت الغرفة بالحضور . حاولت الأجساد المزدحمة استثمار فراغات الغرفة الضيقة نسبيا بالمستشفى الخاص المعروفة بغلو نفقاتها .

أضفت الاضياء الخافتة بالغرفة شعورا مضاعفا بضيق المكان .

غالب الزوج ترددا ، ويبدو أن النفقات المتوقعة كانت تؤرقه واضطرته للاستدانة مسبقا . أذعن لضغط أسرة زوجته المتشبثة بالمظاهر فأدخلها نفس المستشفى الذي ولدت فيه شقيقته الكبرى .

ملأ الأم الصغيرة التي تذوقت مشاعر الأمومة المقدسة منذ دقائق زهوا غير محدود . إلا أنها غالبت ضيقا باطنيا مرده الذكر المرتجى .

قطعة اللحم الحمراء المضمخة بنداء الحياة كانت نانمة ، وحرار الزواكر في تحديد انتساب ملاحه إلى أي الأبوين . علا الغرفة سحابة

وحفيدة بشكل نصف دائري ، والعائد من
العمر قبل أسبوع . اقترح بدوره :
.. مارأيكم في عائشة ؟
.. لا .. ماجي أرق .

اقترحت جارة الزوجة والتي تدرس اللغة
الفرنسية بكلية الألسن وقد وضعت كفها الأيمن
على شعرها متأكدة من هيئته ومن اتقان
مصفف الشعر .

علا صوت الحمأة أم الزوج والتي تقطن بحي
شعبي في لهجة جمعت بين التحذير والثقة
والبهجة .

.. سنسميها لواظ على اسمي . البنت ابنتنا
ومن صلبنا .
انبهرت الحمأة الأخرى معلنة وجودها
وأهميتها .

.. بل البنت ابنتنا ، ونحن الأولى بتسميتها .
الأم صاحبة الفضل والتعب .. صمتت برهة
كأنها تقيس استعداد المسرح لسماع القنبلة
القادمة

.. ولم لا تسمي منيرة على اسمي ؟ ..
تجمعت سحابة من الحساسية والعناد في سماء
الغرفة ..

تقدم زوج خالة الطفلة والذي عمل سنوات
طويلة بالخليج مهدئا للتوتر ، وشافعا رأيه
بضحكة طويلة :

.. انه شغل حموات حقا ، ما رأيكم في إسم

خولة ، فهو إسم عربي أصيل ..
حاصرته نظرات مستنكرة من جهات عديدة
.. فض الرسالة والتزم الصمت .
حذرتهم المعرضة ضجرة وربما زاد من ضجرها
قلة النفحة التي حصلت عليها ، وبدأت
تستعرض نفوذها بينهم .

.. فضوا المشاجرة ولتكن فتحية على إسمي .
ضحكوا جميعا ، وتظاهر زوج بحالة بخناقها .
دخل عم الزوجة دائرة الانتظار واهتزت لحبسته
البیضاء محيطة بوجه توراني وعلامة الصلاة
واضحة كبيرة ..

.. باسم الله .. سنسميها سكية .
التزم الزوج والزوجة الصمت ، وكأنهما
يراقبان ما يحدث في مجتمع آخر لا يخصهما
.. تكدمت الهدايا في المكان : لفافات فخمة
وباقات زهور وعلب حلوى ، كما تناثر في
المكان أطباق الحلوى وفناجين الشاي والقهوة
وزجاجات المشروبات المثلجة .

سأل الجد ابنته والتي رسم جبينها خط عرق
خفيف .

.. مارأيك يا أم المولودة .. سم أنت ؟
رفعت الزوجة الشابة عينيها الواسعتين
البنيتين من ناحية المولود والذي بدا مستغرقا
في نومه السحري متمنيا إلى عالم مفارق
غامض .

.. جهزت لها اسم نوهان إذا كانت بنتا ، وخالدا

إذا كان ولدا .
دارت دورة الأسماء من جديد مقترحة بين القبول
والرفض والتبديد :
هدى . ماجدة . سلوى . سحر . ابتهاج . آية .
شذى . مي . هالة . منى . خلود . غادة ...
صاحت الممرضة محتجة على التسويف
والتردد .
لدينا أوراق رسمية معطلة . خلصونا يا قوم .
لم أر مثل هذا التردد من قبل ، منتهى الحيرة
والتشتت .

* قاص مصري له ثلاث مجموعات قصصية ، وناقد
وأستاذ جامعي بجامعة عين شمس

بقية ص 57

6 . فينكوت دونالدوز: طبيب أطفال وحلل نفسي
بريطاني (1896 . 1971) أظهر في أبحاثه أن
النمو المبكر للرضيع يشوَّف بشكل أساسي على
سلاته الجسدية بأمه (وهي صلات تعبر عن حالتهما
العاطفية) فالطفل بعد هذه المرحلة يتَّجه نحو العالم
الخارجي بواسطة « أشياء انتقالية » تشكل نوعا من
الامتداد لذاته من مؤلفاته : « اللعب والواقع 1971 »
7 . نيتشه : (أنظر 1)

هام

نبهنا الصديق الأستاذ الأزهر النفطي أننا نشرنا في العدد 110 فيفري 2000 موضوع :
جمالية الخارق في القص العربي باسم طارق العمراوي . والموضوع نفسه ويحذيره
منشور بالملحق الثقافي لجريدة الحرية رقم 496 بتاريخ 19 - 11 - 1998 باسم
كاتبه الأزهر النفطي . الأمر الذي يؤكد أن أمرا ما حفَّ بالمسألة . لذا نطلب من السيد
طارق العمراوي أن يدلي بما من شأنه أن يوضح الأمر ويكشف حقيقة ما جرى .

المهرجان الوطني للأدباء الهواة في دورته الثالثة عشرة

متابعة : بلهوان الحمدي

الإبداع الأدبي ونعود به إلى عهده الأول : خيمة لغوية تسمي الوجود وتسع النهار .

عنايات المهرجان :

نحاول أن نرصد أهم ردهات المهرجان بعين متلصصة إنتقائية ونقدية على وجه الخصوص : أقباس المعرفة (1) الورشات (2) شعراء وشعر (3) بعض الشتات (4)

1 . أقباس المعرفة :

1 - أسئلة التجربة الشعرية الجديدة بالمغرب الأقصى (الدكتور محمد الشرقاني - كلية الآداب ظهر المهران - فاس)
اعتمد الأستاذ المحاضر على نصوص لأسماء مغمورة تمارس الكتابة في محترقات (ورشات) كلية الآداب بفاس . فالتماذج مترصصة إلى الوجود . ومنذ البدء يقول الباحث : « لن أغازل هذه التجارب بل سأرصد مناطق الضعف فيها وأطرح أسئلة » حول بنية اللغة وبنية المعنى وبنية الإيقاع .
أما من حيث هي كائنات لغوية تتبدي

فاتحة :

للمرة الثالثة عشرة نلتقي ، بنفس طموحنا الذي جئنا به في الدورة الأولى ، وب نفس الحلم : غدنا الذي تتعقب خطاه بصبر ومثابرة ، ذاك الذي وصلنا بأعذب ما تضرعت به زهرة أماننا .

لاشيء يتكرر رغم ذلك . كأننا نلتقي لأول مرة ، حتى الترحيب وكلمات السلام التي تذبل جذتها بالتقادم ، تزه على ألسنتنا غضة جديدة . لم نضع ميثاقا ولا كتبنا عهدا ، ولكن مشروعا واحدا : نأتي لنبقى ، ونكتب لنسمي غدنا الذي هولنا ، بلطف نطلب من أجدادنا الأجلاء ، أن يكتفوا بحصتهم من النهار ، وأن يتفيلوا ظل أمجادهم الوارف ، نقول لهم : هذا يومنا ونحن أدري به وأقدر على محاورته ، نحن لهذا اليوم كما كنتم لأنسنا . نفتح أفقا ونسكنه . لانحلم بل نعيش أحلامنا ، نوسعها إذا ضاقت ونعلي سقفها ، نعيد صياغة الجغرافية لنسكن بيت

أن القصة القصيرة لم تضبط لها قواعد سابقة لكتابتها وممارستها ما ليس قصة قصيرة؟
- الرواية لأنها تستبطن الواقع وتفسره بهذا ليس من شأن القصة

- المقالة وتتسم بحضور قوي للكاتب ومباشرة وتعميم والقصة الجيدة تنأى عن ذلك
- المقالة القصصية وهي الخطاب التأملي المباشر كالتى نقرأها في (المعذبون في الأرض) لطف حسين وفي أغلب ما كتب عبد القادر المازني والمنفلوطي .

بنية وخصائص القصة القصيرة ؟

القصة القصيرة نسق سردي مغلق غير قابل للتعدد (الأصوات - المواقف - الأشخاص)
البداية - إلفاز - لا إسهاب ولا تمبيع
فهي ليست تقدما أو تهيدا للنص
النهاية - القطب أو اللب - مفتاح اللغز

وهي لحظة الانكشاف والتنوير كأن تكون جملة أخيرة في النص أو ربما اللفظة الأخيرة من الجملة الأخيرة أو علامة تنقيط أو بياض يشي بالصمت ، بل قد تكون نهاية القصة في لهجة الخطاب (سخرية مثلا) وهي تحتاج إلى سارد محتال وقارئ فطن .

وانطلاقا من طبيعة القصة القصيرة التي يرى الكاتب الأمريكي « ألان بو » أنها تقرأ في نصف ساعة استوجب الأمر الاقتصاد في ذكر التفاصيل والتركيز الوظيفي وصولا إلى

النصوص الجديدة ذات لغة مغسولة واهية تشكو من الخلخلة وتنتهي إلى المعجم التأصيلي التداولي العادي ، فهي إذا لا تبلغ مدار التأويل من حيث المعنى تهيم « تيمات » اليأس والانهمام والألم على أغلب قصائدها فهي تترجم عن ذوات منشطرة غارقة في الجرح ومنسدة الأفق مما يؤول بها إلى الإرقاء في أحضان الحلم و « شطحات الدراويش » .

فالنصوص المدروسة غموض وإبهام في المعنى تسفر عن نويات هذيان من حيث بنية الإيقاع (الموسيقي) تنفلت الكتابات الجديدة عن الكلاسيكية التقليدية أي عن سيمتريّة العمود الشعري القديم وتلجأ رغم ذلك إلى تمثلات صوتية تفرغ النص من شعرية .
نالإيقاع هو وليد شكل الألفاظ والمعاني وليس مجرد نظم .

2 - تقنيات كتابة القصة القصيرة
(الدكتور محمود طرشونة - كلية آداب
مؤوية - تونس) :

والرجل أستاذ أدب مقارن بدأ قاصاً (نؤافذ) وانتقل إلى الرواية (دنيا - المعجزة - التمثال)
بدأ بتعريف القصة القصيرة بأنها فنّ صعب جداً غير مسيج بقواعد أو ضوابط ولكن ذلك لا ينفي بعض ثوابته نعرش عليها في النصوص التأسيسية التي أبدعها الرواد في العالم الغربي (شيكوف - موباسان - ألان بو...) أي

وقد اتسم مقالها « الحياة بحثا عن السرد » بالإيجاز الشديد .

بقي أن نشير إلى نواحي لا يصرح بها المشرفون على الورشة منها أن :

* استمراء نص شعري أو قصصي يحتاج إلى نفس مفعمة وحديث شفيف يكون خلاصة معايشة حبيبة للنصوص والغة مستديمة لشتى ضروب الإبداع أكثر من حاجته إلى مناهج صارمة ومنظومات نقدية أو حديثة تحاول وتجهد نفسها لجعل الخلق الأدبي مشروطا رهين سلاسل وأغلال .

* بعض المشاركين من « مشاريع النقد » يحسب نفسه سلطة تشريع وتلقي ما بدا لها من النصوص بترجيبة متهاففة وادعاء « أكاديمي » مهزوز .

* بعضهم يحل بل يضمحل إلى درجة التلاشي في أستاذه . فتراه يتمثل طرائقه واتجاهاته بل يقلده في نبره وجلسه وأسلوب حديثه ويتبنى أو يتلبس شخصية « دكتور » قصرا .

وهذا سلوك لن ينشئ باحثين أو نقادا بل نسخا مشوهة من أستاذة كبار (توفيق بكار - حمادي صمود - محمود طرشونة ...)

3. شعراء المهرجان :

استضاف المهرجان شعراء من تونس وانفتح هذه الدورة على الجزائر والمغرب من تونس قرأ « مجدي بن عيسى » صاحب « تقرير

لحظة التنوير . يقول تشيكوف : « أفضل لك أن تقول مالا يكفي من أن تقول مايزيد على الحد »

تقوم القصة القصيرة إذا على الكشف والتلميح والإيحاء بواسطة لغة نثرية فنية . « إن الأقصوصة إبداع في اللغة وباللغة » (صبري حافظ) .

2. ورشة المقال النقدي :

أشرف الأساتذة مبروك المناعي ومحمد علي اليوسفي ومحمد البويكري على محترف المقال وقد راوحت الجلسات بين المتعة والانفاذة فمنهم من بحث في السرد (قصة ورواية) وبعضهم قارب مجاميع شعرية لأصوات جديدة حضيت مجموعة « مجدي بن عيسى »

« تقرير الشهرة » بمقالين بأعضاء الصديقين « حافظ الطوجاني » و « محمد الفانمي » معز بن يوسف بحث في « آنية الزهر » للشاعر عبد الفتاح بن حمودة .

في مجال الرواية درس الأستاذ الزواري نصا من مسرحية « السد » مركزا على جانبه التقني المسرحي .

كما اهتم الصديق صابر حباشة برواية حسن بن عثمان « بروموسبور »

أما الأستاذة « سلوى السعداوي » فقد ردت على مقال للأستاذ « فؤاد القرقروري » حول رواية « دنيا » لمحمود طرشونة .

« حين يجهشنا القصيد » :

مطر على شجر / ليل قمر / عيون الله نائمة /
ولاتنام عيون الشعراء / يادمه المستغيث /
يادمه ... / لاشعر اليوم / لاخمر / لاكلما
/ لاجر نسيكه / كي يولد الوهم الجميل / هذه
الأرض أضيّق / من مدانا ... / وهذا الحزن
أكبر / فأني اللغات تحتوتنا / وأني الكلام .. /
يهدد دهشة الحلم فينا / قصائدنا يا موتنا
الكثير / كم مرة انطفأت / شمعة الروح /
وقلنا أخيرا / قصائدنا ... / كيف نجبهشك
الآن / كيف .. / ولا شعر اليوم / لا خمر / لا
كلمات / لاجر نسيكه / كي يولد الجسد

القتيل !!

4 (شعراء المغرب الأقصى : مرة تصح مقولة
أن أستاذ الشعر ليس شاعرا مبدعا بالضرورة
فالبون شاسع بين « الدكتوراه » في الشعر
والشعر من حيث هو فن وموهبة .

قرأ الأستاذ « الشرفاني » مقاطع نثرية باردة
لم يتذكر منها الجمهور المنصت سوى لفظة
« الكونتوار » التي أطربته ، ربما أساء الشاعر
الدكتور اختيار ما يناسب لإنشاده .

وما نقرأه في مجموعته « رفوف الذاكرة » يبدو
أجمل :

يسرقني الريح من عينيك / يسافر بي عبر دمي
/ أنتصب شامخا / كالجدار / تنبعثين بين
الكفين / ما / تنبعثين نارا / آه منك يا طيفا

الشهوة « والشاعر » مراد العمودوني « صاحب
« أوهام الطين » والروائي الشاعر « محمد
علي اليوسفي » أنشد بعض قصائده النثرية .
1 - الشاعر « مجدي بن عيسى » تلا مقاطع
من قصيد : « أرواح مهملات » :

* السور :

مستوحدا / يحرس مايليه / من شجر ومن
سحب / وقانعا كعشبة / لايعتره من وقوفه
التعب / يقيم للفراغ هبنة / ويجعل النسيم /
وسائد وينثر الظلال / من حوله / أجمل من
سبائك الذهب
* الطاولات :

المعدن الحي وروح الشجره / الزهرة المنقوع
لونها في الضوء / الورقة / القوة السوداء
والسجائر المحترقة / / من ذا الذي
/ يثرثر في سكونها ؟ / من ذا الذي يوقع /
أنفاسها المنتظمة

2 (الشاعر « مراد العمودوني » : يقول في
« ذكرى » :

فؤادي / كيف يكون العليل / إذا كان وقع
الجفاء قاتلا / أطلت البكاء / على ذكرها /
ولازمني وجدها الخابل / وأجملت نفسي /
عساها تراني / فما عادني طيفها الحاذل /
رسمت على ظلها صورتني / وقلت لمن زارني
راحل .

3 - الشاعر « محمد السعداوي » : يقول في

فحبّك الحبّ ما حبّ يمثله

حبّي كحسنتك يا خضراء منفرد

4- بعض الشتات والهوامش :

الهوامش والمهمّش والمهمّشون من ثقافتنا العربية يداني أو يفوق ما يسمّى بالمركز . من هنا تكمن أهميّة الشتات والهوامش في نظري ، ارتأينا سرد بعض تجاربهم والتعرّيف بهم باختصار . إنهم بعض من أبدع في الإبداع بأنواعه : قصّة وبعاث وترجمة واعلاما . كرمهم المهرجان منارات وشهادات حبّ وتقدير لهم .

كرّم المهرجان القاصّ محمد عيسى المؤدّب بمناسبة صدور مجموعته القصصيّة الثانية « آية امرأة تكون » وقد قدّمه صديقه الشاعر الوسيم الأنبيّ مجدي بن عيسى

واحتفل الملتقى بالدكتور فوزي الزمرلي مدرّس السردّيات بالجامعة التّونسيّة وهو باحث شبيه متخصص في القصّ التّونسي (الدّواعاجي) والرواية العربيّة التي نال بها في أطروحاته « مظاهر التأسيس في الرواية العربيّة » شهادة دكتوراه الدولة في الآداب واللغة العربيّة وقام بتقديمه الدكتور مبروك المناعي بكلّ جلاء وشعريّة وحميميّة .

الأستاذ أحمد الرّمادي حضي بشرف التّكريم بمناسبة صدور التّرجمة الفرنسيّة لرواية « الدّراويش يعودون إلى المنفى » وبقي عمل

/ مصلوبا على جسدي / مذمتي طرقت / أبواب الدّكر / يسرقني الرّيح من عينيك / بجع تطارده الفصول / تنيلج الشّمس / من أركانها الأربعة / يرسو وشما على القلب / حلول / يورق غنبا وزيتونا / يسرقنا الرّيح من عينيك / أتحمّس جسدي والحلايا / تصعدن نزقا فانزا / وطننا ومرايا الشاعرة المغربيّة « لويّزة بولبرس » هي أستاذة في اللّسانيّات والمنطق في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بفاس . قرأت قصيدة رثائيّة في الملك الراحل الحسن الثاني وتنتها بأخرى مدحيّة عنوانها « تونس الخضراء »

الحبّ والشعر والإبداع والرّغد

لواؤها اليوم في الخضراء منمقد

من كلّ فجّ أرى عشاقها وفقدوا

كي يسعدوها كما في حبّها سعدوا

تخيّر الله أهلها وروعتها

هيّات تهفو كما يهفو لها الكبد

حبيبتي تونس مذ كنت طفلفتها

ولم يزل حبّها ينمو ويضطرّد

أتيت من فاس صوت الماجدات

إلى ملاح تونس حيث الدّلّ والدّلع

هنّ الشّعبيّات ، هنّ الفاتنات وهل

بغير هذي الصّبايا يزدهي الغيد

أتيت أشدو بها من وحيه نغما

للحبّ ، منه يغار الليل الغرد

5. تحية حبّ نثرية :

نرفعها عاليا لمدينة عالية وغالية هي
مدينة قلبية الرائعة حيث الفكر و... والعيون
المحور نقول نحبك يا بلد التور يابلادي ، نحبك يا
جمعية منارة الأدب « في ظرف بلغ فيه سعر
اللأعب في ناد كرويّ تونسيّ نصف مليار
وتدنت فيه جائزة في النقد إلى ثلاثين دينارا!!
كيف نسكت على غياب بل تغيب الكتاب
أصلا . هل بسلوك مماثل مكرم الإبداع
المبدعين ؟!

نرجو للمهرجان تجاوز أخطائه التنظيمية
البدائية (التنقل) وأن يفتح على المبدعين
الحقيقيين في الداخل وفي الخارج خاصة وأنّ
المشاركة المغاربية كانت باهتة وأشك في أنها
تمثل فعلا المشهد الأبداعي في كلا البلدين
(الجزائر والمغرب) .

متميز لبراهيم الدرعوثي قبل ذلك نقل قصة
« الأمير الصغير » إلى العربية وبعض قصائد
نورالدين صمود إلى الفرنسية .

هنا قلبية ! هنا لندن !
هكذا افتتح الإعلامي الشهير منيرشما من هو
منيرشما ؟

مثقّف مهجر من فلسطين ، ولد في مدينة عكا
ونشأ ودرس في صدد

اشتغل مدة طويلة قارنا للأخبار في القسم
العربي لإذاعة لندن البريطانية . كما عمل مدة
وجيزة بالإذاعة التونسية بعد الإستقلال
وللرجل ذاكرة مع الأرض والمنفى والثقافة .

ويقوم الآن . وهو شيخ . بترجمة بعض
الكتابات القصصية العربية إلى اللغة
الإنجليزية .

بقية ص 86

الأشجار العالية التي لم تكن قد أثمرت
عصافير ، بل هو حشد عصافير وقد انفض توا
عن مائدة الأمس عند الكرسي الثالث .

الأرض . المدينة المسطحة وهي تكبر في أعينهم
فتبدو لدهشتهم كتلة واحدة لمستطيلات بدت
على شكل بيوت متفرقة .. بيوت لم
يستطيعوا أن يميزوا من خلالها هذا البيت ذا

فرحة مدينتي بربيع الشعر

شعر : محمد العائش القوتي

بمناسبة الدورة الثامنة .
5، 6، و7 ماي 2000:



ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

مدينتي الجميلة
كلّ عام
تتزيّن شوارعها ، ساحتها
وترحل في سفر الشعر
وتلبس حلّتها
وتبدأ حفلتها
وتدعونا للفرح
نغازلها
تراقصنا
وتمنحنا ربيع الشعر
فرحة الشهوة والشكر
هي الأرض الآمنة... الهادئة
المحروسة كالعادة بالصحة والستر
الناعمة بالشمس والذئب .
والسّماء الصّافية.
الصّامتة
والخبز اليومي المبلل بالعرق
المنجمي المخضّر
وفرحة مدينتي
كلّ عام
بربيع الشعر .

مشاهير

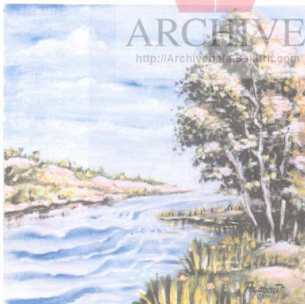


الأستاذ : محمد عزابو

حاورته : سميرة الشمتوري

والرسم على البلور وغيرها وأي التقنيات التي
تستغلها في محاكاةك للريشة والألوان
ج : أول عهدي بالرسم كان على الورقة

الرّسام محمد العزابو معروف بمناهجه
المتعدّدة في ميدان الرسم والفن التشكيلي
س : فلو تقدّم نفسك للقراء ، أكثر .



ج : محمد العزابو رسام
منذ نعومة أظفاري
ويرجع السبب إلى
اهتمامي بكلّ ما هو
جميل فابتدأت رحلتي
مع السير جغرافيا
بالرسم والطبع على
القماش وعلى جميع
المحامل مافتح شهيتي
نحو الفن التشكيلي
أكثر فأكثر

س : هلاّ حدّثتنا عن
الأساليب التي
تستعملها في الرسم
كالرسوم الحائطية



ببلاألوان
المائية ثم قمت
برسم بعض
اللوحات
الزيتية والآن
أقوم بشجرة
الرسم على
البلور مع
التجارب
الأخرى التي
استعنت فيها
بتقنيات
متعددة

س : هنينا لك
بهذه الشهادة
المفتوحة للفن
والألوان لكن
شهرتك
الواسعة
تؤهلك لتنظيم
معارض
داخل
الجمهورية أو

أستاذ محمد اكتشفت فيك موهبة أخرى غير الرسم والمؤكد أن هذه الموهبة تخفي مواهب أخرى .

ج : فعلا أنا متعدد المواهب ومن بين الهوايات التي أمارس طقوسها يوميا وتسري في دمي هي الاستماع للإذاعة والموسيقى والأغاني الملتزمة .

س : الأستاذ محمد رب أسرة سعيدة وأبناء بارون هل لعائلتك فضل لتواصل الملحمة الإبداعية لديك ؟

ج : سؤالك وجيه فعلا للبيت والأولاد والزوجة فضل عظيم جدا لما أجده من السكينة والراحة النفسية والسعادة التي فجرت بداخلي ملكة الإبداع وطول النفس في هذه الرحلة الفنية

س : الحديث معك ذو شجون أستاذ محمد العزايو وكلمة أخيرة لقرء الإنحاف

ج : سمعت عن هذه المجلة كثيرا وللأسف أنني لم أتابع كل أعدادها المتميزة وقد وقع بين يدي عددان أو ثلاث فقط وأعبدكم أنني سأواصل مع هذه المجلة ولن يفوتني أي عدد منها مستقبلا .

حتى خارجها فما رأيك أن تجمع هذه الثروة المتعددة المشارب والأفاق في معرض يشترك فيه الرسم مع باقي الفنون كالشعر والموسيقى والمسرح وتوثق كل هذه الأعمار في كتيب يوزع مجاناً على كل من يستهويه أريج الفنون ومعاني الإبداع

ج : فكرة طيبة أن تجمع الفنون في محراب واحد ألا وهو محراب الإبداع ونحن الآن في رحاب مجلة الإنحاف ليكون نداؤنا إلى كل من يستطيع مساعدتنا لإنجاز هذا الحلم وله جزيل الشكر

س : أستاذ محمد لديك من الروح الإبداعية ما يؤهلك لتنتفع على باقي الفنون فلو لم تكن رساما فمعاك تكون

ج : أكون شاعرا دون شك لأن ولعي بالشعر ولد مع الرسم ولا أزال أحتفظ ببعض الأبيات الشعرية التي كتبتها منذ زمن وإلى الآن ومن حين لآخر تنتابني بعض الأفكار وأدون في مذكراتي بعض الأشعار .

س : جميل جدا أن يولد الرسام مع الشاعر والأجمل أن يحافظ الرسام على الروح الشعرية التي يمتلك .